

نوابغ الفكر العربي

٣٣

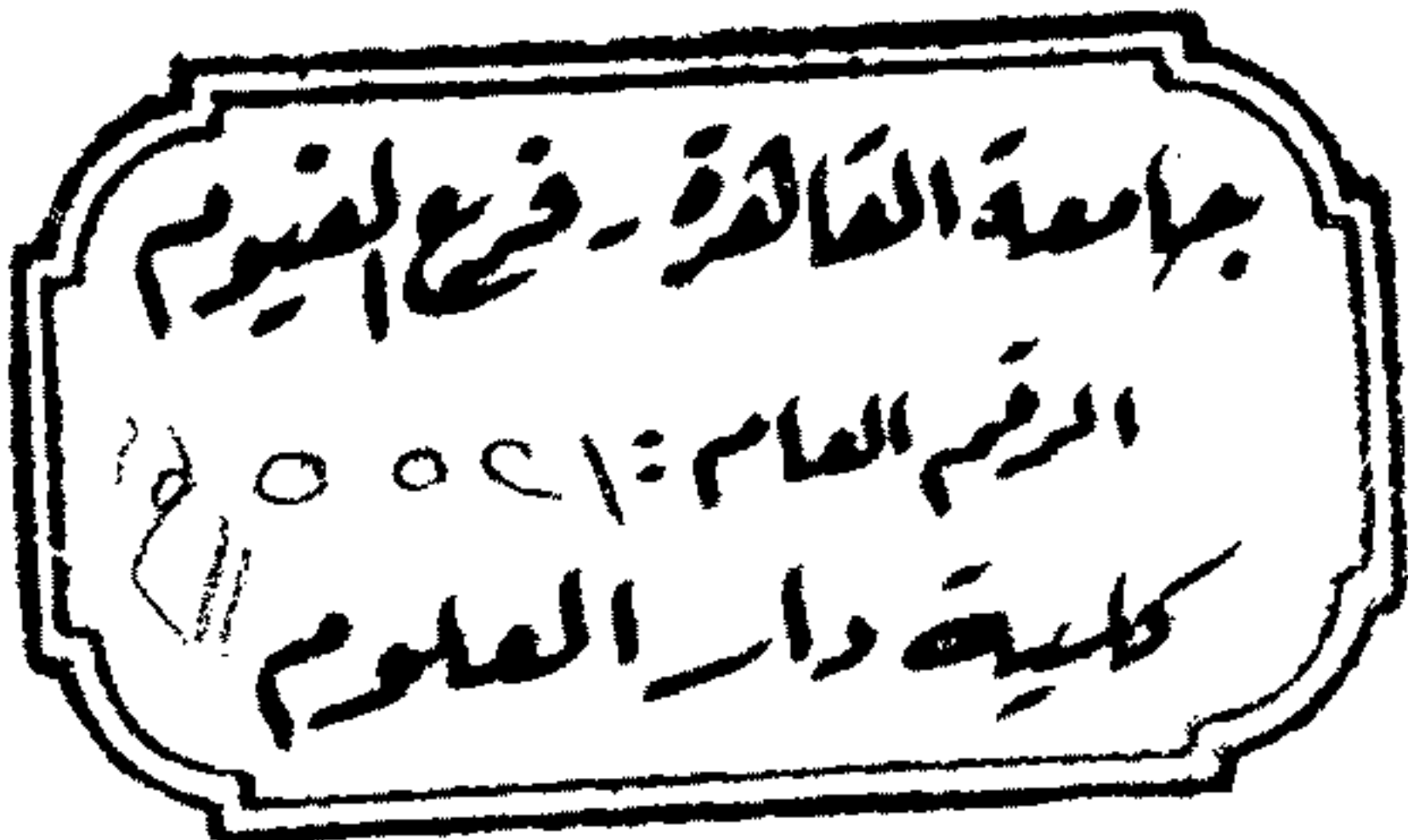
القاضي الجرجاني

بقلم

الدكتور أحمد أحمد بدوي

يقولون : لي فيك انقباض ، وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
القاضي الجرجاني

الطبعة الثانية



دار المعارف

الفصل الأول

عصر الفاضل الجرجاني

١ - الحياة السياسية

لم تكن أحوال الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث هادئة مرضية ، فقد كست الأحوال في عهد المكتفي بن المعتضد الذي بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ (١٥ أبريل سنة ٩٢٠ م) ، وابتدأ عهده بمور المنافسات بين كبار رجال الدولة ، فكان أحدهم يكيد للآخر أخبث يد ، يريد أن يصل بذلك إلى مأربه ، غير ناظر في ذلك إلى ما تقتضيه ملحة البلاد ؛ فانصرف ذوو النفوذ إلى تحقيق أطماعهم الشخصية ، مما كان بآ في ازدياد أمر القرامطة شرًا ، وانتشار فسادهم في الشام والعراق والبحرين ريق مكة ؛ فقد مضوا إلى هذه البلاد يبيثون الرعب فيها ، ويكثرون القتل كل بلد دخلوه ، ويخربونه ، مما اضطر معه المكتفي إلى أن يخرج بنفسه نالهم في الشام ، وبرغم هزيمتهم فيه لم يستطع الخليفة أن يبيد المذهب رملطى .

وفي عهد المقتدر أخى المكتفي ، الذى بويع بالخلافة في ذى القعدة سنة ٢٩٥ هـ ، وكانت سنة إذ ذاك ثلاث عشرة سنة - سقطت هيبة الخلافة ملك الفتنة التى شبت بين المقتدر وابن المعتز ، وانتهت بالقبض على ابن المعتز حبسه وتعذيبه حتى مات^(١) ؛ فلم يعد للخلافة سلطان ولا مكانة في نفوس

(١) الكامل لابن الأثير ٨ : ٨ .

الناس . وكان المقتدر عندما تولى الحكم حدثاً صغير السن ، لا يدرك في السياسة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجري من شئون الدولة ، وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة ، والمقتدر ، منصرف إلى هواه ، لم يعد بيده من الأمر شيء .

وقد تولى الوزراء في أيامه ، يبدؤون عهدهم بالمصادرات ، وينتهي أمر أكثرهم بالقبض عليه وحبسه ، ونهب دوره وأمواله . يقول ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين ومائتين : « في هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبي الحسن ابن الفرات ، ولما قبض على الوزير ، وكل بداره ، . . . ونهب ماله ، ونهبت دور أصحابه ، ومن يتعلق به ، وافتتنت بغداد لقبضه ، ولقي الناس شدة ثلاثة أيام . ثم سكنوا . . . وقلد أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان الوزارة . . . وكان ضجوراً ضيق الصدر ، مهملاً لقراءة كتب العمال ، وجباية الأموال . . . وكان أولاده قد تحكّموا عليه ، فكل منهم يسعى لمن يرتشى منه ، وكان يولّى في الأيام القليلة عدّة من العمال ، حتى إنه ولّى بالكوفة في مدة عشرين يوماً سبعة من العمال ، فعرضوا توقيعاتهم ، فسار الأخير منهم ، وعاد الباقيون . . . فقليل فيه :

وزيرٌ قد تكامل في الرّقاعه	يولّى . ثمّ يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرّشى اجتمعوا لديه	فخير القوم أوفرهم بضاعه
وليس يلام في هذا بحال	لأنّ الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الأمر ، حتى تحكّم أصحابه ، فكانوا يطلقون الأموال ، ويفسدون الأحوال ، فانحلت القواعد ، ونخبث النيات ، واشتغل الخليفة بعزل وزرائه ، والقبض عليهم ، والرّجوع إلى قول النساء والخدم ، والتصرف على مقتضى آرائهن ، فخرجت الممالك ، وطمع العمال في الأطراف ^(١) ، ففي إفريقية

قامت الدولة العلوية ، واستقرت في مدينة المهديّة ، وجعلت همّها الاستيلاء على
 مصر ؛ وفي البحرين وما جاورها اتسع سلطان القرامطة ، واستقلّوا بملك هذه
 البلاد ؛ وفي خراسان وما وراء النهر استقرّ ملك الدولة السامانية ؛ وفي الموصل
 ابتدأت دولة الحمدانيين .

ولما رأى عبد الرّحمن الناصر بالأندلس انحطاط شأن الخلافة العباسية
 إلى هذا الحدّ سمّى نفسه : أمير المؤمنين ^(١) .

وكانت الفتن الداخلية ، والانصراف إلى تهديّتها سبباً في استفحال أمر
 الرّوم على الحدود الإسلامية ، يغرون عليها ، ويأسرون من فيها ، ويخربونها ،
 ولم ينتصف المسلمون منهم إلا في القليل .

وهكذا كانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شرّاً أيام على الدولة العباسية .
 وبعد خلاف بين المقتدر وقائده مؤنس دارت معركة هزم فيها الخليفة
 وذبح ، ثم رفعوا رأسه على خشبة ، وهم يكبرون ويلعنونه ، وأخذوا جميع ما عليه ،
 وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الفلاحين ، فستره بحشيش ،
 ثمّ حفّر له موضعه ، ودُفّن ، وعُني قبره ^(٢) .

وانقضت مدّة القاهر بعده (٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ - ٥ جمادى الأولى
 سنة ٣٢٢ هـ) في أسوأ الأحوال ، بين اشتغاله بالبحث عن استر من أولاد
 المقتدر وحرمه ، ومحاولة أخذ المال من أمه ، ولم يمنعه مرضها وجزعها على ابنها
 الذبيح من أن يضربها أشدّ ما يكون من الضرب ، وأن يعلقها برجلها ،
 لتعترف بما تملك ؛ ثمّ حلّ وقوفها جميعها ، ووكل في بيعها ، فبيع ذلك
 جميعه ، ثمّ صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ^(٣) ، وعلق الأستاذ الحضريّ
 على ذلك بقوله : « ولم نسمع في التاريخ ما يقارب فعل القاهر ندالة ، وجبناً ،

(١) الدولة العباسية للحضري ص ٣٩٦ .

(٢) الكامل ٧ : ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٩١ .

ونخسة ، وشراة نفس^(١) .

وبعد نزاع عنيف بينه وبين وزيره ابن مقلة وقائده مؤنس وحاجبه وابن حاجبه وغيرهم ؛ اتَّفَقُوا على خلعه ، وزحفوا إلى الدَّار ، وهجموا عليها من سائر الأبواب ؛ فلما سمع القاهر الأصوات والحلبة استيقظ مخموراً ، وطلب باباً يهرب منه ، فلم يجده ، فقبضوا عليه وحبسوه ، وسملوا عينيه ، وبذلك انتهت مدة خلافته .

وازدادت الحال إداراً واضطراباً في عهد خلفه : الرّاضى (٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ - منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ) ؛ فكان أصحاب النفوذ في العراق يتنافسون ، ويقتتلون ، والذين يحيطون بهم من المتغلبين يمدون ويجهدون ، وانتهت مدّة الرّاضى في منازعات سياسية ، والأعداء ، ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ، ولم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة .

ومما زاد الأمر إداراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد ؛ فقد ظهر بها الحنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يهاجمون دور القوَّاد والعامّة ، وإن وجدوا نبياً أراقوه ، وإن رأوا مغنّية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، وإن شاهدوا من يمشى مع امرأة أو صبيّ سألوه عن الذى معه : من هو ؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه ، وحملوه إلى صاحب الشرطة ، فأثاروا الفتنة ببغداد^(٢) .

وفي عهد الرّاضى ظهرت الدّولة الإخشيدية بمصر ، وحدث اسم أمير الأمراء في بغداد ، وصار إلى أمير الأمراء الحلّ والعقد ، والخليفة يأتمر بأمره ، وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء^(٣) .

ولهذا كان الوصول إلى هذا المنصب أمل كبار رجال الدّولة ، ومن أجله يقتتلون ، وانتهت مدّة المتقى (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ - ٢٠ صفر

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٤٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١١ .

سنة ٣٣٣ هـ) في نزاع وحروب بين القادة للظفر بسلطة أمير الأمراء ، وانتهى الأمر بأن اختار المتقي مضطراً أكبر قواد الديلم واسمه : « توزون » لمنصب أمير الأمراء ، ولم يكن عنده شيء من حسن السياسة ، فاستوحش منه المتقي وخافه على نفسه ، فمضى إلى بني حمدان ، وبعد حروب بين « توزون » وحماة الخليفة الحمدانيين ، حلف « توزون » ألا يغدر بالمتقي ، وفي الطريق الذي عاد به المتقي إلى بغداد التقى به « توزون » ، وقبل له الأرض ، وقال له : هأنذا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ، ثم وكّل به وبمن معه ، ثم سمله ، فأذهب عينيه ، ويقول ابن الأثير : « فلما سمله صاح وصاح مَن عنده : من الحرم ، والخدم ، وارتجت الدنيا ، فأمر "توزون" بضرب الدّبادب ؛ لئلا تظهر أصواتهم ، فخفيت أصواتهم ، وعمى المتقي لله (١) » .

وخلفه المستكنى بالله الذى لم يبق في الخلافة إلا سنة واحدة وأربعة أشهر ، وفي عهده استولى البويهيون على بغداد ، وفي اليوم الذى دخل فيه معز الدولة البويهى بغداد سقط السلطان الحقيقى من أيدي الخلفاء العباسيين ، وصار الخليفة ، رئيساً دينياً ، لا أمر له ، ولا نهى ، ولا وزير ، وإنما له كاتب يدير أمواله ، وصار معز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء .

وقد خطر ببال معز الدولة أن ينقل الخلافة عن العباسيين إلى العلويين ؛ لأن الديلم كانوا شيعة ، ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل ، وقال له : إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه ، مستحلّين دمه ؛ ومتى أجلس بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحّة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعّلوا ؛ فأعرض عما كان قد عزم عليه .

ولم يمكث المستكنى في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة سوى أربعين يوماً .

ثم خلع ؛ لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه ، وصمم على خلعهم ، ففي الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ، ثم حضر رجلا من نقباء الديلم يصيحان ، فتناولوا يد المستكنى بالله ، فظن أنهما يريدان تقبيلها ، فمدّها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته في حلقه ، ونهض معز الدولة ، واضطرب الناس ، ونهبت الأموال ، وساق الديلمان المستكنى بالله ماشياً إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخلافة ، حتى لم يبق بها شيء ؛ ولما بويع المطيع لله بعده سلم إليه المستكنى ، فسمله ، وأعماه ، وبقي محبوساً إلى أن مات (١) .

ولمّا هذا الحدّ من الهوان وصلت الخلافة العباسية ، وزاد الأمر سوءاً ما كان بين الأسرة العباسية نفسها من التباغض والتحاسد ، فمثلاً نرى المستكنى بالله عندما ولي الخلافة يخافه المطيع لما كان بينهما من منازعة ، فقد كان كل منهما يطلب الخلافة ويسعى إليها ، ويهرب المطيع ، ويستتر ، والمستكنى يطلبه أشد الطلب فلا يعثر عليه ، فلما قدم معز الدولة إلى بغداد قيل : إن المطيع انتقل إليه ، واستتر عنده ، وأغراه بالمستكنى حتى قبض عليه (٢) .

ولم يكن عهد المطيع لله (٢٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ - منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣) بأفضل من عهد سابقه ، ولكن سارت الخلافة في طريق الاضمحلال ، ولم يتجه معز الدولة إلى الإصلاح والتعمير ، وإنما انصرف إلى الحرب مع جنده الديلم حيناً ، ومع ناصر الدولة بن حمدان بالموصل حيناً آخر ، ومع البريدى أمير البصرة تارة أخرى ؛ ولم يكن عهد معز الدولة ببغداد إلا شراً كله ، من جرّاء الخلافات الدينية والحروب الداخلية والخارجية ، وضعف هيبة السلطان . وصارت البلاد أسوأ حالاً في عهد ولده عز الدولة الذى اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين .

(١) المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧ .

وكان سوء الحال إلى هذا الحد سبباً في طمع الروم واستفحال أمرهم ، فاستردوا جميع الثغور الإسلامية الكبرى ، وأغاروا على كثير من بلاد الشام والجزيرة ، وصارت لهم الهيبة في القلوب ، وأمراء المسلمين يغزو بعضهم بعضاً ، ويطمع كل فيما في يد صاحبه ، ويُسْغَلون بذلك عن عدوهم الذي لا ينام^(١) .

ونخلع المطيع نفسه بعد أن أصيب بالفالج ، وخلفه ابنه الطائع إلى أن نخلع في ٢١ رجب سنة ٣٨١ هـ . وفي عهده قام الخلاف بين بني بويه ، حتى إذا آل الأمر إلى بهاء الدولة البويهى قبض على الطائع ؛ وذلك لأن الأموال قلت عنده ، فشغب عليه الجند ، فأطمعه وزيره في أموال الخليفة ، وحسن له القبض عليه ، فأرسل إلى الطائع ، وسأله أن يأذن له في الحضور إليه ، فأذن له ، ودخل بهاء الدولة ومعه عدد كثير . فلما دخل قبل الأرض . وجلس على كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة . فجذبه وأنزله عن سريره ، والخليفة يقول : « إنا لله ، وإنا إليه راجعون » ، ويستغيث ، فلا يُلْتَفَتُ إليه ، وأُخذ ما في داره من الذخائر . وفي دار « بهاء الدولة » أشهد عليه بالخلع^(٢) سنة ٣٨١ هـ .

وظل الحال في إديبار في عهد الخليفة القادر بالله الذي ظل خليفة إلى أن مات سنة ٤٢٢ هـ ، فلم يكن له شيء من السلطان ، وكان في زمنه أحداث عظام من قيام دول وإبادة أخرى .

وفي عهده هذا الخليفة توفي القاضي الجرجاني سنة ٣٩٢ هـ وكانت « جرجان » إمارة لها مكانتها عند من يتغلب عليها ، وقد يتخذها دار مقامه كما فعل مؤيد الدولة البويهى^(٣) .

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٤٣٤ وما يليها .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٦ .

(٣) الصاحب بن عباد ص ٣٢ .

٢ - الحياة الاجتماعية

لم تكن الثروة في العصر الذي عاش فيه القاضي الجرجاني موزعة توزيعاً عادلاً ، ولكنها كانت في أيدي الأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، أما طوائف الشعب فترسف في قيود البؤس والفاقة .

وكانت ثروة كبار الرجال ضخمة ، ينفقونها في الترف وبناء القصور ، ومتع الحياة ، ولم يكن مصدر هذه الثروة في كثير من الأحيان مصدراً مشروعاً ، فقد كانت المناصب الكبيرة تشتري بالمال ، على أمل أن يعود من يصل إليها ، لا بتراز أضعاف هذا المال من غير وجهه الحلال .

وقد حفظ لنا التاريخ بعض ما خلفه الأمراء في ذلك الحين ، فنجد « بجكم » مثلاً ، وهو الذي كان أمير الأمراء في عهد المتقي ، يستولى الخليفة ، بعد قتله ، على داره وما فيها من الأموال ، فيبلغ ما ناله ألف ألف ومائتي ألف دينار ، وكانت مدة إمارة بجكم سنتين ، وثمانية أشهر وتسعة أيام ^(١) .

ومما يدلنا على مصدر أموال الأمراء ما يروى من أن مؤيد الدولة البويهية أمير جرجان عندما اشتد به المرض ، قال له الصاحب : تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ، وتبرأ من هذه الأموال التي لست على ثقة من طيبتها ، وحصولها من حلها ، واعتقد متى أقامك الله وعافاك ، صرفها في وجوهها ، ورد كل ظلامة تعرفها ، وتقدر على ردّها ^(٢) .

كان المجتمع إذاً في ذلك العهد يتكوّن من طبقتين تتميزان تمام التميز ؛ إحداهما طبقة العلية ، وهي محدودة العدد بالنسبة إلى الطبقة الثانية ، وهي جماهير الشعب .

(١) الكامل ٨ : ١٤٣ .

(٢) الصاحب بن عباد ص ٣٣ .

وكان لزاماً على الشعراء والعلماء إذا أرادوا الحياة أن يتصلوا بواحد من طبقة العلية ، يضمن له عيشه ، ويحيا الشاعر والعالم في كسنته ، وربما اضطر أحدهما إلى أن يبذل ماء وجهه في سبيل الوصول إلى من يرعاه ؛ وقد يؤثر بعضهم الانزواء والفقر ، على الثروة وفقدان الكرامة .

ولذلك شاع في مدح الشعراء إطراء السخاء وذم البخل ، رغبة في نوال الأثرياء ، كما شاع أيضاً إهداء العلماء كتبهم إلى الطبقة الحاكمة ، وتصدير هذه الكتب بذكرهم والثناء عليهم .

وفسدت الحياة الاجتماعية بما كان بين الجند من اختلاف عنصري ؛ فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك ، وبين العنصرين غيرة ومنافسات ، فكان بينهما في أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس ، حيث تقف حركة التجارة ، لخوف الناس على ما بيدهم من المال ^(١) .

كما فسدت بالنظام الإقطاعي الذي يهب الأرض لكبار القواد والأمرء ، وهؤلاء لا يعينهم من الأرض إلا ما تدره عليهم من الثمرات ؛ فاشتط غلمان المقطعين في الظلم ، وضعفت همّة الفلاحين في القيام بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها ^(٢) .

كما عمل على فسادها أيضاً هذه الخلافات المذهبية التي كانت تثور بين العامة ؛ فتجعل البلاد ميداناً للاضطرابات المتكررة ؛ فبعد قيام الدولة البويهية ، وهي دولة مغالية في التشيع ، نما مذهب التشيع ، ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً ، فكانت الاضطرابات تتكرر ، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين ، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر ، وكان لذلك أسوأ الأثر في الأحوال العامة ^(٣) .

(١) تاريخ الدولة العباسية للخضري ص ٤٢٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

ويضاف إلى ذلك هذه الاضطرابات التي كانت تسود البلاد عند قيام النزاع بين من يريدون الاستئثار بالسلطة ، أو بين بعض المتغلبين في أطراف الدولة وبعضهم الآخر .

وظل المذهب الشعبي يعمل عمله في النفوس ، فظهرت الحركة الانفصالية الفارسية في القرن الثالث الهجري ، وازدادت في القرن الرابع ، فكانت بلاد فارس تجتهد في التخلص من سلطان الخلافة العباسية ، ثمّ يمتدّ نفوذها السياسي إلى العراق ، وقام بها حينئذ دول ذات كيان مستقلّ .

كما أن اللغة الفارسية استعادت حياتها ، وفي ظلّ تلك الدّول ظهر شعراء ينظمون بالفارسية ، ومنهم من نظم بها وبالعربية ، كقاموس بن وشمكير^(١) .

أمّا الناحية الخلقية فكان الانحلال يسود طبقة الأغنياء والمترفين ، وكان الكبر والخطيئة ديدن أولى الأمر ، أما الفقراء والبائسون فأذلاء يبيعون كرامتهم ، وإذا كنا نرى في بعضهم عزّة وكرامة فقد كان ذلك في القليل النادر .

ولكن العلماء قد استعاضوا عن الظفر بمتع الحياة بتقدير بعضهم لبعضهم الآخر . فكانت تصل إلى النابغين منهم رسائل الإعجاب من قرائهم ، وكان هؤلاء النابغون يجدون في ذلك بعض العزاء .

ونضيف إلى مظاهر الحياة الاجتماعية في ذلك العصر الولوع بالغلّمان في الأوساط المستهترّة ، وعند بعض العلماء والأدباء ، وظهر ذلك في إنتاج الشعراء يومئذ .

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين ، وكان الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم .

٣ - الحياة العقلية

إذا كان انقسام الدولة العباسية ، وقيام دويلات في أرجائها ، قد فتت وحدة الأمة الإسلامية ، وعاد بالضعف على الخلافة - فقد كان هذا الانقسام سبباً في قيام نهضة علمية كبرى في القرن الرابع الهجري .

ذلك أنه في عصر الوحدة السياسية كانت العاصمة بغداد تستأثر وجدها تقريباً بالنصيب الأكبر في النهضة العلمية والأدبية ، ولا يكاد يكون لغيرها إلا حظٌ ضئيل في هذه النهضة ؛ فلما قامت الدول المقتطعة من جسم الدولة العباسية كان لكل دولة عاصمتها ، وفي كل عاصمة أميرٌ يعمل بكل ما أوتي من قوة على أن يجذب إلى بلاده النوابغ في العلم والأدب ، وينافس في ذلك غيره من أمراء العواصم الأخرى ، فكان ذلك مجالا لتفتح مواهب كثير من العلماء الذين أتيح لهم الاتصال بهؤلاء الأمراء أو الوزراء .

كما أن فساد الحالة السياسية دفع بعض العلماء إلى أن يفرغ لعلمه بعيداً عن هذا المعترك الذي يتنافس فيه الراغبون في المناصب السياسية الرفيعة .

وكانت بغداد والرّى ونيسابور ، وهي بلاد زارها القاضي الجرجاني ، كما زار غيرها - من مراكز الحركة العلمية النشيطة في ذلك العصر .

وأتيح لهذا العصر ثلاثة من الرجال نهضوا بالعلم والأدب نهضة قوية ، وأتاحوا للعلماء حياة خصبة منتجة ، وهم عضد الدولة البويهى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد .

أما عضد الدولة فهو ابن ركن الدولة صاحب بلاد الرّى والجليل ، ثم ضم العراق إلى ملكه ، بل ضم إليه تقريباً ملك البويهيين جميعاً ، وكان يقيم في الرّى أحياناً ، وحيناً في شيراز . ثم جعل بغداد عاصمة ملكه بعد أن فتح العراق .

وكان عضد الدولة إلى جانب ملكه الواسع ، مثقفاً ثقافة عالية ، يقصده العلماء ، ويمدحه الشعراء ، وإليه رحل المتنبي ، وأنشده قصائد مدحه ، وقال في إحدى هذه القصائد :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها^(١)

وكان ابن العميد وزيراً لركن الدولة، وظل وزيراً نحو اثنتين وثلاثين سنة حتى توفى سنة ٣٦٠ هـ ، وكان مركز إقامته بالرقي .

وبرز ابن العميد في علوم شتى ، كان حافظاً للغة والغريب ، دارساً للنحو والعروض ، حافظاً لدواوين الشعراء جاهليين وإسلاميين ، عارفاً بتأويل القرآن ، ومشكله ومتشابهه ، ملمّاً باختلاف فقهاء الأمصار ، وإلى جانب ذلك كان ذا حظ موفور في الهندسة والمنطق ، وعلوم الفلسفة والإلهيات والحيل (الميكانيكا) والطبيعة وغيرها^(٢) .

وأثنى الصاحب بن عباد على ذوقه في نقد الشعر إذ قال : « ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينقده حق نقده ، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد ؛ فإنه يجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهديب المعنى ، حتى يطالب بتخير القافية والوزن »^(٣) .

وأما الصاحب بن عباد فكان هوام في العلوم الشرعية كالحديث والتوحيد والأصول ، والعلوم اللغوية ، وكان متبحراً في اللغة .

وكان واسع الثقافة الأدبية، اجتمع حوله من الأدباء ما قل أن يجتمع لغيره ، حتى قال الثعالبي عنه : « احتفى به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد »^(٤) .

(١) كان عضد الدولة أول من لقب بالملك في الإسلام - ظهر الإسلام ١ : ٢٤٦ .

(٢) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٨ .

(٣) الكشف عن مساوي المتنبي ص ٢٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٩ .

وفي عصر هؤلاء عاش القاضي الجرجاني ، واتصل بابن عباد وقابوس .
وقد تقدمت العلوم في ذلك العصر ، وزادت فروعها على ثلاثمائة ، كان
من بينها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران^(١) . وحسبك أن ترجع
إلى كتاب « الفهرست » لابن النديم^(٢) لترى تلك الجهود الواسعة التي بذلها
العلماء في دأب . حتى تكونت نهضة علمية مباركة .

فمن العلوم التي درست في ذلك العصر العلوم الشرعية من التفسير والحديث
والفقه والأصول وعلم الكلام ، وكان الصاحب بن عباد معتزلياً ، نصر
الاعتزال . وقرب إليه المعتزلة^(٣) .

ومنها العلوم اللسانية كالنحو والصرف ، وكان أكثر ما دون فيه شروحات
وتعليقات ، ومن أشهر علماء النحو في ذلك العصر ابن جني صاحب الخصائص
في أصول النحو ، وسر الصناعة في النحو^(٤) .

وظفرت اللغة بنصيب كبير من العناية في ذلك العصر ، فرأينا أحمد بن
فارس الرازي^(٥) ، يصنف كتاب المجمل حافلاً بالشواهد^(٦) ، ووصل إلينا من
كتبه كتاب « الصاحبي » نسبة إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب في فقه
اللغة وسنن العرب في كلامها . كما ألف الصاحب فيها كتابه « المحيط » .

وورث هذا العصر الكتب التي ألّفت في الأدب والنقد الأدبي ، فقرأ آراء
ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وأفكار ابن قتيبة في كتاب
« الشعر والشعراء » ، وما جمعه ابن المعتز في كتاب « البديع » ، وما كتبه قدامة
في مؤلفه : « نقد الشعر » ؛ كما ورث المجموعات الشعرية التي ألفها المفضل

(١) تاريخ الأدب العربي - ج ٣ - العصر العباسي ص ١٦ .

(٢) توفي سنة ٣٨٥ أو سنة ٣٧٨ هـ .

(٣) ظهر الإسلام ص ٢٥٣ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ج ٣ - العصر العباسي ص ٢٤٦ .

(٥) توفي سنة ٣٩٠ هـ .

(٦) تاريخ الأدب العربي - ج ٣ - العصر العباسي ص ٤٧ .

الضبيّ ، وأبو تمام والبحترى وغيرهم ، وآلت إليه دواوين الشعراء الذين نبغوا في القرون السابقة ؛ فكان من ذلك ثروة أدبيّة واسعة .

كما أسهم هذا العصر بإنتاج أدبيّ ضخم من عمل الشعراء الذين عاشوا في بلاط أمراء الدويلات ووزرائهم ، أو عاشوا في خضم الحياة العادية . وعلى رأسهم ديوان المتنبي .

وأسهم في تاريخ الأدب والنقد بكتب لا تزال مراجع حيّة إلى وقتنا هذا ، ككتاب الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني^(١) ، والموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، للمرزباني^(٢) ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري^(٣) .

وأثار المتنبي حركة قويّة من النقد في حياته وبعد وفاته ، فألفت رسائل في بيان عيوبه ، وأخرى في ذكر فضائله ومزاياه ، كما وقف البعض من هذه الحصومة موقفاً وسطاً يعرف للشاعر نقائصه وفضله ، وكان من أثر ذلك ظهور كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني .

كما ثارت الحصومة أيضاً حول أبي تمام والبحترى ، فكان الكلّ منهما أنصار ومؤيّدون ، مما دعا الآمدي^(٤) إلى وضع كتاب « الموازنة بين الطائيّين » .

لقد آل إلى هذا العصر آراء مبعثرة عن النقد الأدبي ، فحاول بعض رجاله أن يستنبط من هذه الآراء المبعثرة قواعد مطردة كأبي هلال العسكري مثلاً ، ورأى البعض الآخر أن يقف عند النصوص ذاتها ، يتبين ما فيها من مظاهر الجمال أو القبح كما فعل الآمدي ، والقاضي الجرجاني ، وذلك يدل على حركة نقدية نشيطة في ذلك العصر .

وكان التاريخ من المواد التي عني بها كذلك ، وكانت قد تعدّدت

(١) توفي سنة ٣٥٦ هـ .

(٢) توفي سنة ٣٨٤ هـ .

(٣) توفي سنة ٣٩٥ هـ .

(٤) توفي سنة ٣٧٠ هـ .

الاتجاهات في التأليف فيه؛ من تاريخ للسير والفتوح ، ومن تاريخ الأنساب والطبقات ، ومن تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين ، أو خاص بالناس أو البلاد أو الأمم ؛ وأسهم علماء ذلك العصر أيضاً بجهود مشكورة في هذه السبيل ^(١) ، وكان من ذلك كتاب للقاضي الجرجاني .

أما العلوم الكونية من طبيعيات ، كالطبيعة ، والكيمياء ، والطب ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات ، والحماة ؛ ومن رياضيات ، كالجبر ، والهندسة ، والحساب ، والحيل (الميكانيكا) ، والفلك ، والجغرافية ، ومن إلهية ، مما تتعلق بالإله ، وقوى النفس ، وكل ما وراء الطبيعة ، ومن سياسية ، كتنظيم الملك ، وتدبير المنزل ، وتدبير المال والأخلاق — أما هذه العلوم فقد ترجمت عن اليونانية والفارسية ، والهندية وغيرها في القرن الثاني والثالث للهجرة ، واشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة ، وبرز فيها من فلاسفة المسلمين أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي ^(٢) ، وأبو نصر الفارابي ^(٣) ، وأبو بكر الرازي ^(٤) .

وكانت هذه العلوم مما يدرس في عصرنا الذي نتحدث عنه ، كما ألفت فيها بعض علماء هذا العصر ^(٥) .

* * *

وقد أوجد ابن العميد والصاحب بن عباد حركة أدبية قوية ، يومئذ ؛ لأنهما أرادا أن يجمعوا بين جلال المنصب ووجاهة الأدب : «فهما وزيران خطيران ، وسياسيان كبيران ، وأديبان عظيمان ؛ فاستخدما كل ذلك في إعلاء شأن الأدب» ^(٦) ، وتأنقا في إنتاجهما الأدبي تأتقاً بالغاً .

(١) تاريخ الأدب العربي ج ٣ - العصر العباسي ص ٢٥٤ .

(٢) توفي سنة ٢٦٠ هـ .

(٣) توفي نحو سنة ٣٥٠ هـ .

(٤) توفي سنة ٣١١ أو سنة ٣٢٠ هـ .

(٥) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٩ - ٢٥١ .

(٦) ظهر الإسلام ١ : ٢٥٢ .

« فهو لاء بحكم جاههم وعزهم وترفعهم ، كان نتاجهم الأدبي مترفاً يتأنق في فنه : فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق في الأدب ، فأدب هذا العصر تقدم خطوات في السجع والمحسنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية ، فالصائبى وابن عباد أفرطاني السجع ، وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم ، هذا إلى الإمعان في الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا في تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطرف فيما يصنعون ، من حلى وأدوات زينة ؛ وإذ كانوا في مركز رئيسي في الحياة الاجتماعية ، كان طبيعياً أن يكون نتاجهم هو المثل يقلد ويحتذى ، فمن كان أديباً فقيراً تشبه بهم ، وحذا حذوهم ، وهم بذلك قد خلقوا ذوقاً عاماً في الأدب ، يستحسن طريقتهم ، فجارى الأدباء هذا الذوق (١) . »

ولكن ينبغي القول بأن بعض الأدباء قد أفلت من إسهار السجع يومئذ ، فلم يلتزمه ، ولكنه إن جاء لم يرفضه ، فكان طبيعياً يستدعيه المعنى ، فلا يضيق به الصدر ، كما أن ذلك البعض أفلت كذلك من إسهار المحسنات البديعية ، ومضى منطلقاً مع الطبع يهتدى بهداه ، كما فعل القاضى الجرجاني . وقد تنوعت الكتابة في ذلك العصر بين رسائل إخوانية ، ورسائل ساطانية وكتابة تأليف ، وإنشاء مقامات .

وقد ابتكر هذا اللون من الأدب ، وهو فنّ المقامات ، اللغوى الراوية ، الأديب الشاعر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، عندما رحل إلى نواحي فارس للعمل مع ابني ميكال ، فرأى أن اللغة الفارسية وآدابها تبعث من أجدائها ، فابتكر نوعاً من الأدب يعارض به الأدب الفارسي في أربعين حديثاً ، وصفها الحصري في كتاب زهر الآداب (٢) بأنها كانت « في معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله

(١) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٢) زهر الآداب ١ : ٢٣٥ .

الطبائع ، ولا ترفع له حججها الأسماع » ، واعمل هذه الأحاديث كانت في معارض عجمية : لأنه كان يعارض بها الأدب الفارسي ، وكانت في ألفاظ حوشية ، لأن ابن دريد كانت لغويته أغلب شيء عليه .

وجاء بعد ابن دريد ، أبو الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ ، فوضع مقامات على نسق ابن دريد^(١) .

واتبعه تلميذه بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ ، فأنشأ مقاماته التي تحدث عنها الحصري ، وذكر أن البديع عارض ابن دريد : « بأربعمائة مقامة في الكدية ، تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما : عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندري ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر ، في معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة^(٢) » .

وهكذا شهد هذا العصر الذي نتحدث عنه ميلاد المقامات ونموها . وما ينبغي أن يذكر هنا أنه برغم بعث اللغة الفارسية وآدابها في ذلك العصر كانت اللغة العربية لغة العلم والأدب ، والحكومة والطبقة العالية في فارس^(٣) .

* * *

أما الشعر فبرغم أنه تطور على أيدي المحدثين ، لم تفسده الصناعة ، بل ظل محتفظاً بحياته وقوته ، وحسبنا أن نذكر أن المتنبي^(٤) ، والشريف الرضي^(٥) كانا من شعراء ذلك العصر .

واحتفظ الشعر يومئذ بأغراضه الموروثة : من المدح ، والهجاء ، والرتاء ،

(١) تاريخ الأدب العربي ج ٣ - العصر العباسي ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) زهر الآداب ١ : ٢٣٥ .

(٣) ابن العميد ص ١٣ .

(٤) توفي سنة ٣٥٤ هـ .

(٥) توفي سنة ٤٠٦ هـ .

والغزل ، والوصف ، والعتاب ، والاعتذار ، والفخر ، والمجون ، والحمريات ،
والزهد ، والشكوى .

وكان للمدح نصيب كبير من جهود الشعراء في ذلك الحين .
وقد انعكست صورة العصر في الشعر والنثر ، فرأينا شعراً يمثل ترف المترفين ،
وآخر يحكى بؤس البائسين ، وغير هذين يصور ترفع المترفعين ؛ ورأينا شعراً
ونثراً لطائفة رأت فساد الحياة الاجتماعية ، وبؤس الطبقة الكادحة ، فرأت
الانصراف عن وسائل العيش من التجارة والصناعة والزراعة إلى التسوّل عن
طريق الأدب ، وسمّوا بنى ساسان ، وظهر أثر ذلك في نثر المقامات ، فهي
قصص يدور معظمها على الكدية .

وصور الشعر ظاهرة حب الغلمان ، فرأينا الوزير المهلبى برغم جلالته
مكانته ، وعظم منصبه يقول فى غلام تركى كان لمعز الدولة ، وجعله رئيس
سرية جرّدها لحرب بعض بنى حمدان ، وكان الوزير المهلبى يرى أنه من عدد
الهوى ، لا من عدد الوغى ، فقال فيه :

ظبي يرقّ الماء فى	وجناته ، ويرقّ عوده
ويكاد من شبه العدا	رى فيه أن تبدو نهوده
ناطرا بمعقد خصره	سيفاً ومنطقة تئوده ^(١)
جعلوه قائد عسكر	ضاع الرّعيل ومن يقوده ^(٢)

وهكذا تركت الحياة الاجتماعية صورتها واضحة فيما أنتجه العصر من
الشعر .

(١) تئوده : تثقله .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٠٤ . والرّعيل : القطعة من الجيش .

الفصل الثانى

القاضى الجرجانى فى عصره

١ - حياته

القاضى الجرجانى هو على بن عبد العزيز ، ويذكر بعض مؤرخيه له ثلاثة من الأجداد ، هم : الحسن ، على ، وإسماعيل^(١). وكان مولده بجرجان^(٢) ، التى وصفها ياقوت الرومى بقوله : « وهى مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، . . . وهى أكبر مدينة بنجاحيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً ، وأكثر مروءة ويساراً . . . وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأنى والأخلاق الحمودة . . . وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . . . »^(٣). وهكذا كانت البيئة الأولى التى ولد فيها « على » ، بيئة تؤهل من عنده استعداد لأن يبرز فى العلم والأدب ، وأن يتولى من المناصب ما يحتاج إلى الرزانة والوقار والخلق الحميد كمنصب القضاء .

أما تاريخ ولادته فيختلف فيه مؤرخوه ، وإذا كان الوضع الطبيعى لذكر تاريخ الوفاة هو آخر ترجمة الحياة ، فإننا هنا مضطرون إلى أن نذكر تاريخ الوفاة ؛ لأنه هو الذى يحدد لنا تاريخ الميلاد .

فابن خلكان فى وفيات الأعيان يروى عن مؤلف تاريخ النيسابوريين أنه توفى فى سلخ صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعمره ست وسبعون سنة ؛ وعلى

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٣) معجم البلدان ٣ : ٧٥ .

ذلك يكون تاريخ ولادته سنة تسعين ومائتين . ويرجح ابن خلكان هذه الرواية ، ويقول : إنها أثبت وأصح^(١) .

كما نقل ابن خلكان أيضاً رواية من ذهب إلى أنه ترقى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة^(٢) ، وإلى أن محمداً أخاه ورد به نيسابور في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة^(٣) ، وهو صغير غير بالغ^(٤) ؛ فإذا قدرنا أن سنّه يومئذ كانت خمسة عشر عاماً يكون قد ولد في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، ويكون قد أدرك السبعين يوم وفاته .

أما أنا فأخالف ابن خلكان ، وأرجح هذه الرواية للأسباب الآتية :
أولهما : أني أرجح أنه مات بعد صاحب بن عباد ؛ يقول الثعالبي : « وتصرفت به أحزال في حياة صاحب ، وبعد وفاته : من الولاية والعطلة »^(٥) ؛ وقد توفي صاحب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة^(٦) .

وثانيهما : أنه اتصل بشمس المعالي قابرس بن وشمكير^(٧) الذي تولى الحكم في جرجان بعد سنة ست وستين وثلاثمائة^(٨) .

وثالثها ، وهو يكاد يكون قاطعاً فيما ذهبنا إليه : أن صاحب بن عباد قد صار وزيراً ابتداء من سنة ٣٦٦ هـ^(٩) أما قبل ذلك فكان كاتباً للأمير البويهى

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ . وأخذ بهذه الرواية صاحب شذرات الذهب .

(٢) بهذه السنة أرّخ ياقوت في معجم الأدباء (١٤ : ١٥) عام وفاة القاضي ، وحدد السبكي شهر وفاته في هذا العام بنى الحجة (طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨) ، وحدد بروكلمان يوم الوفاة بالربيع والعشرين من هذا الشهر (١٤ نوفمبر سنة ١٠٠١ م) - تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ . وجعله ياقوت يوم الثلاثاء .

(٣) كتبت في بروكلمان خطأ : سنة ٣٧٧ هـ ، وأغلب الظن أنها خطأ مطبعية .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ : وروى ذلك أيضاً السبكي في طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٦) صاحب ابن عباد ص ٤٤ .

(٧) راجع معجم الأدباء ١٤ : ٣٠ ، ويتيمة الدهر ٤ : ١٥ .

(٨) تاريخ الدولة العباسية للخضري ص ٤٤١ .

(٩) صاحب ابن عباد ص ٢١ .

مؤيد الدولة ، وشعر القاضي الجرجاني فيه يصفه بالوزير ، إذ يقول من قصيدة يهنته فيها بالبرء من المرض :

إذا ألت نفس الوزير تأملت لها أنفس تحيا بها وقلوب
ووالله لا لاحظت وجهاً أحبه حياتي ، وفي وجه الوزير شحوب
ممد يدل على أنه كان متصلاً به بعد هذه السنة التي قيل إنه مات فيها .
وتلك الرواية الثانية هي التي أخذ بها بروكلمان وجعل غيرها خطأ^(١) .
وأغلب الظن أن علي بن عبد العزيز تلقى ثقافته الأولى ببلده جرجان ،
فإن أول رحلة له في طلب العلم كانت - علي ما أرجح - إلى نيسابور ،
حيث صحبه أخوه إليها ، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم ، كما ذكرنا .

ولست أدري السبب الذي دفع القاضي الجرجاني إلى الرحيل عن بلده
جرجان ، ولكنني أرجح أن الفتى عذياً توفي أبوه ، وهو في سن مبكرة ،
فعنى بأمره أخوه محمد . فلما أراد هذا الأخ أن يرحل في طلب العلم صحب معه
في الرحلة أخاه الصغير ، وقصد نيسابور التي يصفها ياقوت بأنها « معدن
الفضلاء ، ومنبع العلماء »^(٢) ، حيث سمعا من سائر شيوخ المدينة^(٣) .

ويظهر أنه أطلال المقام في نيسابور ، أو أنه كان يتردد عليها في الحين بعد
الحين ، ويطيل المقام فيها ، مما جعل مؤرخ النيسابوريين يتحدث عنه في
كتابه ، بل يزعم أنه مات في نيسابور^(٤) .

وتفتحت نفسه في هذه الرحلة لطلب العلم ، ورأى فيها مجالاً للاغتراف
من الثقافة بأوفى نصيب ، فمضى يحجوب البلاد الإسلامية ، ليلقى العلماء ،
ويأخذ عنهم ، يقول الثعالبي : « وقد كان في صباه خلف الخضر في قطع
عرض الأرض ، وتدوين بلاد العراق والشام وغيرهما ، واقتبس من أنواع العلوم

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ .

(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٥٦ .

(٣) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

والآداب ما صار به في العلماء علماً ، وفي الكُتّال عالماً^(١) ، ويقول ياقوت :
إنه « لقي مشايخ وقته ، وعلماء عصره^(٢) » .

وإذا نحن عرفنا أن القاضي الجرجاني ألف في التفسير والتاريخ والفقه
والنقد وله شعر ورسائل ، استطعنا أن نستنبط ما أفاده في هذه الرحلات من ثقافة
واسعة في الشريعة والأدب ، وكتابه الوساطة يدل على اطلاع واسع على دواوين
الشعراء السابقين ، وعلم غزير باللغة ، ومعرفة بالغريب ، ومقدرة على فهم معاني
الشعر ، وتمكن من النحو والعروض ، واتصال وثيق بما كتبه النقاد من قبل .
والرّاجح عندي أن ثقافة القاضي الجرجاني كانت عربية خالصة ،
لم يتصل فيها بالنقد اليوناني . وربما يكون قد ألمّ ببعض نواحي الفلسفة اليونانية ،
مما مكّنه من معالجة بعض الشعر الفلسفي للمتنبي .

وإن رحلاته الكثيرة هي التي جعلته يقول :

مالي ومالك يا فراق أبداً رحيل وانطلاق^(٣)

ولعلّ بغداد كانت أكبر مدينة تركت في نفسه أثراً بالغاً ، فقد تغنى بها
طويلاً بعد أن فارقها ، وحنّ إلى معاهدها ، وذكرياته فيها ، وأنشأ في ذلك
عدّة قصائد لما أثرها العميق في النفس .

وكان يتمنى أن لو عاد إليها .

ولعله انكفاً راجعاً إلى بلده ، بعد أن وعى صدره من العلم والأدب
ما وعى ؛ وربما كان يأمل أن يجد تقديراً من حكام عصره ، فيولّوه عملاً يدر
عليه رزقاً واسعاً يناسب ثقافته العالية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، ورأى
دون الوصول إليه ما لا تحتمله نفسه ، ولا يطيقه خلقه : من خضوع ونفاق ،
فانزوى في بيته ، منفقاً من صبره ، مؤمناً بأنه لا يكفيه همّ الرزق إلا إنسان
حرّ لا يكلفه إذلال نفسه ؛ وربما طلب إليه صحبه أن يرحل ليعيش في كنف

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

أمير أو وزير ، فيقول :

وقالوا : اضطرب في الأرض ؛ فالرزق واسع

فقلت : ولكن مطلب الرزق ضيق

إذا لم يكن في الأرض ، حرٌّ يعينني

ولم يك لي كسبٌ فمن أين أرزق^(١)

وقد حقق الله للقاضي أملة يوم هيئاً له الاتصال بالصاحب بن عباد ،

الذي صار وزير بني بويه ، والذي « كان نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر ،

في فضائله ، ومكارمه ، وكرمه » « على المحل في العلم والأدب »^(٢) .

واشتد اختصاص القاضي بالصاحب ، وحلّ عنده محلاً رفيع المكانة ،

وأجلّه إجلالاً يبين عنه ما بقي من آثار الصاحب .

قال القاضي : انصرفت يوماً من دار الصاحب ، وذلك قبيل العيد ، فجاء

رسوله بعطر الفطر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذا البيتان :

يأيها القاضي الذي نفسي له مع قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه^(٣)

وولاه الصاحب قضاء جرجان^(٤) ، وهنا كانت الفرصة سانحة لعلّ

ابن عبد العزيز أن يظهر في مدينته ، بتبوّئه فيها ذلك المنصب الكبير .

ولست أدري ماذا فعل القاضي في جرجان من الوسائل التي ينبني عليها

المجد ، فهل كان يجلس في قومه مجلس الأستاذ ، يذيع بينهم علمه الغزير ،

أو أنه التزم بجانب العدالة في قضائه ، حتى وجد المظلوم في كنفه العدل

والأمان ؟ أو أنه استخدم جاهه وصلته بالصاحب الوزير ، فأفاد أهل بلده

بذلك الجاه العريض ؟

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٨ .

(٢) مقتبسات من وفيات الأعيان ١ : ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

لست أدري ماذا فعل القاضي حتى صح له أن يقول :

وشيئت مجدى بين قومي ، فلم أقل : ألا ليت قومي يعلمون صنيعى^(١)
وكان القاضي يقول : إن الصّاحب يقسم لي من إقباله وإكرامه بجرجان
أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد ؛ وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيته بي ،
وتواضعه لي ، فأنشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدّه من فعلك الحسن
فالعزّ مطلوب وملمّتمسّ وأعزّه ما نيل في الوطن^(٢)
ولعل الصّاحب أراد أن يكون القاضي بجواره دائماً فولاه قضاء الرّى^(٣) ،
حيث يقيم الصّاحب ؛ وفي الرّسالة التي كتبها الوزير إلى حسام الدّولة ،
أبى العباس تاش الحاجب ، ما يدلّ على إعجاب الصّاحب بالقاضي إعجاباً
حمّله على ألا يفارقه ، فقد كتب الصّاحب بخطه كتاباً إلى هذا الأمير ،
عندما أراد القاضي السفر إلى جرجان لأمر من الأمور ، وجاء في هذا الكتاب :
« قد تقدّم من وصفني للقاضي أبى الحسن على بن عبد العزيز فيما سبق . . .
عن كتبي ما أعلم أني لم أؤد فيه بعض الحقّ ، وإن كنت دلّته على جملة تنطق
بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدّهر ، في كل قسم
من أقسام الأدب والعلم ؛ فأما موقعه مني فالموقع الذي تحظيه هذه المحاسن ،
وتوجبه هذه المناقب . وعادته معي ألا يفارقني مقيماً وظاعناً ، ومسافراً وقاطناً ؛
وقد احتاج الآن ، إلى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصيير المقام
كالإمام . . . فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظي الجسيمة عنده تعهد
القاضي أبى الحسن بما يعجل ردّه ؛ فإنني ما غاب كالمضل الناشد ، وإذا عاد
كالغانم الواجد ، فعل إن شاء الله^(٤) » .

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣ . نقلاً عن اليتيمة .

ومن تلك الرسالة يتبين تقدير الصاحب للقاضى ، حتى جعله من أفراد الدهر . ويتبين أيضاً مقدار حرصه على أن يبقى القاضى إلى جانبه ، حتى صار كأنما هو من أفراد أسرة الصاحب (١) .

وقابل القاضى الجرجانى هذا الحب والتقدير بود وإعجاب بالغين . ولست أدري السبب الذى من أجله كان القاضى الجرجانى يترك منصبه فى حياة الصاحب وبعد وفاته (٢) ، وهل كان من أسرار ذلك حنينه إلى العلم ورغبته الملحة فى الدراسة والاطلاع ، حتى قال :
ما تطعمت لذّة العيش حتى صرّْتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شىءٌ أعزّ عندى من العلم م : فلم أبتغى سواه أنيسا
إنما الدّلّ فى مخالطة الناس : فدعهم ، وعش عزيزاً رئيساً (٣)
وترقى محل القاضى الجرجانى إلى أن صار قاضى القضاة بالرّى ، ولم يعزله إلا موته (٤) .

ولمّا جانب هذا المنصب الكبير ذاع اسم القاضى فى أرجاء العالم الإسلامى بما نثر ونظم وألّف .

وقد عرف القاضى الجرجانى بعض كبار الرجال غير الصاحب ومدحهم . ومما لا شك فيه أنّ القاضى الجرجانى كان له تلاميذه الذين قرءوا عليه ، وأخذوا عنه ، ولكن مؤرّخيه لم يذكروا أحداً من هؤلاء التلاميذ إلا عبد القاهر الجرجانى ؛ فقد روى ياقوت أنه قرأ عليه ، واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره فى كتبه تبخّخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه (٥) .

وإنى أشكّ فيما رواه ياقوت من أنّ عبد القاهر قرأ على القاضى الجرجانى

(١) المرجع السابق ص ٢٢ نقلاً عن اليتيمة أيضاً .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

شيئاً ، لأنّ القاضي توفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ؛ فمتى يكون عبد القاهر قد أخذ عنه ؟ لقد توفي عبد القاهر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فإذا كان قد أخذ عن القاضي الجرجاني ، فلا بدّ أن يكون عبد القاهر قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً على الأقل ، حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضي ؛ ومعنى ذلك أنّ عبد القاهر ولد حول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ؛ فيكون عند وفاته قد أربى على تسعين عاماً ، ولم يشر أحد من مؤرخيه إلى أنه طعن في السنّ إلى مثل هذا الحدّ ؛ مما يرجح أنّ أخذ عبد القاهر عن القاضي كان أخذاً عن كتبه ، لا شخصه^(١) .

ويصمت التاريخ صمتاً مطبقاً حول حياته الخاصة ، فهل تزوّج القاضي الجرجاني وكون أسرة وأنجب أولاداً ؟ أو أن رحلاته في طلب العلم قد استغرقت شبابه ، حتى إذا رجع إلى بلده وجد ضيق العيش في انتظاره ، حتى إذا انفسحت أمامه الآمال عندما اتصل بالصاحب بن عباد — كان وقت الزّواج قد تولى ، فانصرف إلى كتبه يقرأها ، وإلى قرطاسه وقلمه يسجل ما انتهى إليه من أفكاره وتجاربته ؟ لا يجيب التاريخ عن ذلك السؤال .

وتوفي القاضي الجرجاني ، وهو قاضي القضاة بالرّى^(٢) ، وزعم مؤرخ النيسابوريين أنه توفي بنيسابور^(٣) ؛ ويجمع مؤرخوه على أن تابوته نقل إلى مسقط رأسه جرجان^(٤) ، حيث شيعته مدينته تشيعاً حافلاً ، وصلى عليه القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، وحضر جنازته الوزير الخطير أبو علي القاسم بن عليّ بن القاسم وزير مجد الدولة راجلاً^(٥) ، حيث أودعه مقرّه الأخير .

(١) عبد القادر الجرجاني ص ٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٤) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، وشذرات الذهب ٣ : ٥٦ .

(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

٢ - صورته الجسمانية والنفسية

ليس فيما بين يديّ من مصادر تاريخه ما يلتقي ضوءاً ما على صورته الجسمانية ، ولم يرد في شعره الذي بقي لنا ما يشير إلى شيء من هذه الصورة ، ومن أجل ذلك أرجح أنه كان إنساناً عادياً ، لا ترى العين فيه شذوذاً يستوقفها .

أما صفاته النفسية فإننا نرى عند مؤرخيه إعجابهم به إعجاباً بلغ بياقوت أن يقول فيه : إنه أريب كامل^(١) .

وأول ما نلاحظه من صفاته : الذكاء ، فقد رأيناه قبل أن يبلغ سنّ الرشد في نيسابور مع أخيه محمد يتردد على شيوخها ، ويأخذ العلم عن أعيان علمائها^(٢) ، ورأينا أثر هذا الذكاء فيما اهتدى إليه القاضي الجرجاني من مبادئ في النقد كان لها أثرها الكبير في النهوض بالنقد وحسن توجيهه . وكان من تقدير القاضي للذكاء أن يجعله من أسس صفات الأديب^(٣) .

وثاني ما نلاحظ فيه : مقدرته على التحصيل ، وهو بهذه الصفة وسابقتها يستطيع أن ينتفع بما يقرأ ، وأن يستنبط مما يعرفه قواعد يضيف بها جديداً إلى ثروة العلم ، وذخيرة الأدب ، وقد أشار مؤرخوه إلى هذه المقدرة ، فذكر الثعالبي أنه اقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلماء علماً وفي الكمّال عالماً^(٤) ، وقال ابن خلكان في الحديث عن كتابه : الوساطة : إنه أبان فيه عن فضل غزير ، واطلاع كثير ، ومادة متوفرة^(٥) .

وثالث ما نلاحظه من صفاته : الصراحة في قول الحق ، وليس أدلّ على

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ١٤ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٥) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

هذه الصّفة من تأليفه كتاب الوساطة ؛ فنحن قد رأينا فيما مضى الصلة الوثيقة التي ربطته بالصاحب بن عباد، ورأينا حبّ الصاحب له حباً مبنياً على التقدير والإعجاب ، وسوف نرى قصائد المدح التي أنشأها القاضي في الصاحب شكراً له وتسجيلاً لفضله ، ومع كل ذلك لم يتردد القاضي الجرجاني عند ما ألف الصاحب كتابه : الكشف عن مساوئ المتنبي — أن يعلن رأيه في الشاعر صريحاً وإن خالف رأى الصاحب .

وسواء أكان تأليف كتاب الوساطة قبل أن يتصل بالصاحب ، أو وهو متصل به ، أم بعد أن مات الوزير ، فليس ذلك بمنقص من صراحة القاضي ، ولا بغاوض من شأنها :

فلو أنّه كتبه قبل أن يتصل بابن عباد فإنّ هذه الصراحة لم تدفعه إلى أن يجامل رجلاً مرموق المكانة ، رفيع المنزلة ، مأمول الجاه ، مرجوّ العون : ولو أنّه كتبه بعد وفاته فهذه الصراحة أيضاً لم تدعه يجامل صديقاً لا يرى الحقّ إلى جانبه ؛ وأمر الصراحة في قول الحقّ واضح إذا كان القاضي قد أنشأ الكتاب في حياة الصاحب .

ورابع ما نذكره : حبه للصديق ؛ فلا يصدر حكماً مبنياً على هوى ، وكان ذلك هو الذي دفعه إلى تأليف كتاب الوساطة ، فقد رأى الكثير من أحكام الصاحب صادراً عن الغيظ الذي ملأ صدره على المتنبي .

وخامس صفاته : ميّاه إلى العدالة ، ولذلك سجل له التاريخ أنه كان حسن السيرة في قضائه ، صدوقاً^(١) .

وإن تلك الصفات هي التي أهّلته لولاية القضاء ، وتأليف كتابه الخالد : الوساطة .

وسادس ما نستطيع أن نصفه به : الصبر ؛ فهو يصبر على الفقر ، ويمنع

(١) المرجع السابق نفسه .

نفسه من شهواتها إذا لم يجد ما ينفقه في زمن العسر ، مؤمناً بأنه إذا لم يجد المرء عند نفسه ذخيرة من الصبر يلجأ إليها في أيام الفاقة ، فإن للناس العذر إذا لم يقدموا إليه مالا ينفقه على رغائبه .

والصفة السابعة هي التي دفعته إلى الصبر وحملته عليه ، وهي عزة النفس والأنفة من إذلالها ، وهو لذلك لا يرى الخضوع لأرباب المال والسلطان وسياسة إلى الرزق الواسع والغنى العريض .

والصفة الثامنة تتصل اتصالاً وثيقاً بعزة النفس ، وتلك هي انقباضه عن الناس ، وإيثاره للعزلة عنهم ؛ لأنه يرى في القرب من أصحاب السلطان خضوعاً لا يرضاه ، كما ذكرنا . ويرى في القرب من الناس ما يدفعهم إلى الاستهانة بأمره والغض من قيمته ، وله في ذلك قصيدة مشهورة يقول فيها :

يقولون لي : فيك انقباض ، وإنما
أرى الناس : من دانا هو هان عندهم
وما زلت منحازاً بعرضي جانباً
إذا قيل : هذا مشرب ، قلت : قد أرى
ولم أقض حق العلم إن كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً ، وأجنيه ذلةً
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه ، فهان ، ودنسوا

رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
ومن أكرمه عزّة النفس أكرماً
من الدم ، أعتد الصيانة مغنماً
ولكن نفس الحرّ تحتل الظماً
بدا طمع صيرته لي سلماً
لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدم ما
إذا فاتّباع الجهل قد كان أحزماً
ولو عظموه في النفوس اعظماً
محبّاه بالأطماع ، حتى تجهّما^(١)

فهو يرى من حق العلم أن يكون صاحبه رئيساً مخدوماً ، لا خاضعاً ذليلاً لمن بيدهم المال والجاه ؛ ويضحى بزينة الحياة الدنيا إذا صحبها الهوان والذل .

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ١٧ ، والنثر الفني ٢ : ١١ . والحيا : الوجه . وتجهّم : صار عابس الوجه . والذي في المعجم : (ولكن أذلّوه جهاراً . . .) .

وصفه الانقباض عن الناس تحفظ له وقاره ، وهى كذلك بلا شك ترشحه لمنصب القضاء ، وتتفق مع هذا المنصب .

ولم يكن اتصاله بالصاحب بن عباد غاضباً من عزّة نفسه ، أو نزولاً منه عن كرامته ، فقد رأينا فيما أسلفناه تبجيل الصاحب للقاضى تبجيلاً كان القاضى يستغنى الصاحب منه « لفرط تحفّيه به ، وتواضعه له »^(١) .

ويظهر لى أن صفة الانقباض عن الناس ، وإيثار البعد عنهم كانت من أبرز سماته التى لحظها فى نفسه ؛ فلم يكن انقباضه عن كبار الرجال فحسب . ولكن عن صحبه كذلك ، فقد كتب إلى أخوين له يعتذر من انقباضه عنهما ، وإغبابه زيارتهما :

أيا معهدَ الأحباب ، ذكرهمْ عهدى
ودُمُّ لى ، وإن دام البعادُ ، على الودِّ
ولى خلُتْ لا أستطيع فراقه
يُفَوِّتُنِي حظي ، ويمنعني رشدى
تفور عن الإخوان من غير ريبة
تعدّ جفاء ، والوفاء لهم وكدى^(٢)
غذيت به طفلاً ، فإن رمتُ هجره
تأبى ، وأغرتنى به ألفة المهد
على أننى أقضى الحقوق بنيتى
وأبلغ أقصى غاية القرب فى بُعدى
ويخدمهم قلبى ، وودّى ، ومنطقى
وأبلغ فى رعى الزّمان لهم جهدى^(٣)

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٢) وكدى : قصدى .

(٣) جهدى : طاقى .

فإن أنما لم تقبلا لى عذرة
والزمتانى فيه أكثر من وُجدى
فقلوا لطبعى أن يزول ؛ لأننى
أرى لكما حقّ الموالى^(١) على العبد^(٢)

والقطعة صريحة فى وصف هذه الحصلة ، وأنها متأصلة فيه ومن طباعه
التي لا يستطيع أن يفارقها ، مع إيمانه بأنّ هذا الخلق يحول بينه وبين لذائذ
الحياة .

وصفة تاسعة نستطيع أن نصفه بها مطمئنين ، تلك هى حبه للجمال ،
فقد تغنى بمظاهر الحسن ، وهما إلى الجمال فى شعره .

وأغلب ظنى أنه كان يجد فى النبذ متعة يسعد بها فى هذه الحياة ، وقد أباح
بعض علماء الدين شرب النبذ إذا لم يصل شربه إلى حدّ الإسكار .
وغلبنى هذا الظنّ عند قراءة هذا الشعر للقاضى فقد أرسل إلى من كناه
بأبى الحسن يقول له :

أبا حسن ، طال انتظار عصابة
وقد فاتهم من قربك الأنس والمنى
فإن كنت قد عوّضت عنهم بغيرهم
فأنس الفتى فى الدّهر نخلٌ مساعد
فإما رسولٌ بالنبذ مبادرٌ
رجتك لما يُرجى له الماجدُ الحرّ
وحاربهم فيك اختيارك والدّهر
فعوّضهم راحاً يزول بها الفكر
وإن فاته الخلُّ المساعد فالحمر
وإلا فلا تغضب إذا غضب الشعر^(٣)

ونستطيع أن نختم حديثنا عن صفاته النفسية بصفة عاشرة ، تلك هى أنه كان
برغم انقباضه عن الناس طموحاً كبير الآمال ، نلمح ذلك فى قواه :
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتي
لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

(١) الموالى : السادة .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

لا يرضى أن يعيش في بلد لا يعزّ فيه ، ولا يقيم حيث يبتذل ولا يدرك
منّ حوله مقداره :

وما أقيم بدار لا أعزّ بها ولا يقر قرارى حيث أبتذل^(١)
وكان يدعو من لا يعز بداره إلى الرحيل عنها ، واختيار مقام جديد يحقق
فيه آماله ؛ وما هو ذا يرسل إلى شاعر بلغه عنه أبيات يشكو فيها أهل ناحيته ،
فكتب إليه :

إذا البلد المغمور ضاق برُحْبِهِ على ماجدٍ فليسكن البلد القفرا^(٢)
وهو مؤمن بأنّ الصّبر هو الذى يحقق الغايات ، ويحطم الصّعاب والعقبات :
وما غلب الأيامَ مثلُ مجرّبٍ إذا غلبته غايةٌ غلب الصّبرا^(٣)
ولسنا نشكّ في أنّ مدائمه لبعض أمراء عصره كان يريد بها أن يتخذها
وسيلة لتحقيق آماله ، ولا سيما أنه كان يجد نفسه أهلاً لأن يظفر من الآمال
بما يشاء ، على شريطة ألا يلجئه ذلك إلى ذل أو خضوع .

وكان القاضي الجرجاني يعتزّ بشخصيته ، وظهر من آثار هذا الاعتزاز
أنه برغم صلته بالصاحب لم يتأثره في التزام السجع .

ومع هذا الاعتزاز يبدو فيه تواضع العلماء ، فتسمعه يقول لمن يناظره :
« فإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردّني إليها ، ونبتهنى عليها ؛ فما أبرئ
نفسى من الغفلة ، ولا أدّعى السلامة من الخطأ »^(٤) .

ومن صفاته عالماً وقاضياً تربيته في الحكم ، وحبّه للدقّة فيما يصدره من
الأحكام ؛ فإذا أصدر حكماً عاماً قرّر أنه أقدم عليه « انقياداً للظن ، واستئانة
إلى ما يغلب على النفس ؛ فأما اليقين الثقة ، والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن
أدّعيه »^(٥) .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .

(٤) الوساطة ص ١٧٤ .

(١) المرجع السابق ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٥) الوساطة ص ١٥٧ .

ولنا أن نضيف إلى كل ما سبق أنه كان رجلاً يحب أن يتقن كل عمل يوكل إليه ، ويبذل فيه كل ما يملك من الجهود .

٣ - علاقته بعصره

لم يتصل القاضي الجرجاني بالسياسة في البلاد التي رحل إليها في العراق والشام ، على ما أرجح ؛ لأنّ همّه كان منصرفاً إلى الدّرس والتحصيل ، ووجد في العلم ميداناً يستغرق نشاطه كله ، وربما رأى في السياسة المضطربة التي سادت العصر الذي عاش فيه صارفاً يحول بينه وبين الانغماس فيها ؛ فإنه كان يرى عزيز اليوم ذليل الغد ، فما له يسير في طريق لا يأمن مغبته .

وعندما اتصل بالصاحب بن عباد وبعض أمراء عصره ، لم يمدحهم بشيء يتصل بالسياسة فيما بقي لنا من شعره .

كما أن منصب القضاء الذي تولاه بعيد كلّ البعد عن السياسة في يد رجل نزيه يعتز بنفسه كالقاضي الجرجاني .

ولكنه اتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة العلمية في عصره ، فمضى يحب البلاد باحثاً عن أعلام العلماء ، يأخذ عنهم ، ويجلس بين يديهم طالباً مجدداً ، حتى إذا حصل من الثقافة ما استطاع أن يحصل ، عاد بدوره ينشر العلم بين طلابه ، وفيما يضعه من الكتب ، حتى ذكر اسمه في الدنيا ، كما قال ياقوت ^(١) .

ويدلنا على ما وصل إليه في عصره من المكانة العلمية أنه بعد أن ألف كتاب « الوساطة بين المتنبئ وخصومه » أرسل إليه بعض أهل نيسابور مدحاً يقول فيه :

أيا قاضياً ، قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه^(١)
 كتابُ « الوساطة » في حسنه لعقد معاليك كالواسطه^(٢)
 وما هو ذا يرسل إليه بعض أهل رامهرمز أبياتاً يمدحه فيها ، فيجيبه
 القاضي الجرجاني بقصيدة طويلة يقول فيها :

بدأت ، فأسلفت التفضل والبراً وأوليت إنعاماً ملكت به الشكراً
 أتتنا عذاراك اللواتي بعثها لتوسعنا علماً ، وتلبسنا فخرها
 فأوليها حسن القبول معظماً لحق فتى أهدى بهنّ لنا ذكراً
 تناهى الهى فيها ، وأبدع نظمها خواطر ينقاد البديع لها قسراً
 مدحت ، فعددت الذى فيك من علا وأبستنى أوصافك الزهر الغراً^(٣)

وكنا نتمنى أن لو كانت الأبيات التى أرسلت إليه من رامهرمز قد وصلت
 إلينا لتبين ما كان الناس يحملونه للقاضى من التقدير ، وأسباب إكبارهم له ؛
 لأن البيتين اللذين قبلا فى الوساطة يدلان على مقدار ذبوع هذا الكتاب ، ووصوله
 إلى الأقاليم ، وما قوبل به عندما ألّف ، وفى التعبير بعقد المعالى ما يشير إلى
 ما كان يحمله الناس للقاضى من الإكبار والإعجاب .

كانت الصلة العلمية التى تربط القاضى بعصره قوية وثيقة ، وإذا كان
 القاضى ممن يؤثرون الانقباض عن الناس واعتزالهم ، كما ذكرنا ، فلم يكن ذلك
 الانقباض عن تلاميذه ، لأنهم هم الذين أذاعوا اسمه فى أرجاء الدنيا .

أما الصلة الوثقى التى ربطت القاضى الجرجاني بعصره تمام الارتباط فهى
 أخذه بنصيب من تلك الحصرمة التى شبت فى عصره حول المتنبي (٣٠٣ -
 ٣٥٤ هـ) ؛ فمنذ حياة الشاعر تكوّنت أوساط معجبة به فى حلب ، والفسطاط ،
 وبغداد ، وشيراز ، حيث كان ديوان الشاعر يشرح .

(١) شاحطة : بعيدة .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .

أما دائرة حلب ، فقد تفرقت بموت سيف الدولة ؛ لأنها كانت في جوف معاد للشاعر ؛ وكذلك كان مصير دائرة شيراز ؛ فهذه أقام عضده الدولة في بغداد ، ذابت في دائرة عاصمة الخلافة .

ولم يضع موت المتنبي حداً للعداوة التي يحملها كثير من الكتاب والشعراء والعلماء للشاعر وديوانه :

فأحياناً تبدو هذه العداوة بالصمت ، ويظهر أن ذلك كان حال أبي الفرج الأصفهاني الذي لم يذكر مرة واحدة شاعر سيف الدولة في كتابه العظيم : « الأغاني » ، وحال المرزباني أيضاً (المتوفى سنة ٣٨٣ هـ) ؛ إذ لم يُشر إلى المتنبي أية إشارة بخير أو بشر في كتابه : « الموشح » في أخطاء شعراء العرب .

ومع ذلك لم يستمر النقد ملتزماً بهذا الصمت المعاتب ، بل انتقل إلى دور الهجوم بعنف من لم يعد يخشى رد الشاعر الذي مات .

وقد بدأ ذلك صاحب بن عباد ؛ فقد صنف مؤلفاً صغيراً سماه : « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » ، كما عني الحاتمي الذي كان قد حدث المتنبي - بنقد ديوان أبي الطيب ، في رسالتين ، عنوان إحداهما : « الموضحة في ذكر سرقات المتنبي والساقط من شعره » ، وتعرف هذه الرسالة أيضاً بالرسالة الحاتمية ، كما تعرف الثانية « بالرسالة الحاتمية » كذلك ، وفي مقدمتها يذكر أن بعض شعر المتنبي يذكر بأفكار أرسطو ، ثم أورد مائة حكمة من حكم أرسطو ، وأتبع كل حكمة بيت من شعر المتنبي ، يشتمل على فكرة مشابهة .

أما العسكري الناقد البغدادي المؤلف لكتاب الصناعتين ، والمتوفى بعد سنة ٣٩٥ هـ ، فيظهر أنه لم يقابل المتنبي ، وأن عداوته ناشئة من آراء شخصية لأبي هلال ، لا يرى شعر المتنبي يتفق معها ، وقد قال أبو هلال عنه : « لا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب ، فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي ؛ فإنه

ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها^(١) .
 أمام هذا الاتجاه المعادى للمتنبي ، نهض حبّ المعجبين بالشاعر ،
 وأخذ عددهم يزداد في كل يوم .

فالصّابي ، رئيس ديوان الإنشاء في بغداد ، والذي كان يفكر في أن
 يمدحه الشاعر ، لم يخطئ عندما كان يقتبس من شاعر الكوفة .
 وفي بلاط البويهيين بالرّى ، لا ندهش عندما نرى الضّبيّ ، أحد كتّاب
 الإنشاء ، والذي كان من المخلصين في خدمة ابن عباد ، يستعير بعض أخيلة
 المتنبي .

ومما هو جدير بالنظر أنّ الوزير ابن عباد وجد نفسه مقوداً بغير إرادته إلى
 أن يعترف بمواهب الشاعر الذي يهاجمه ، بأن نثر أو تمثل علانية ببعض شعره
 الجيد .

كما نجد أبا بكر الخوارزمي الكاتب والشاعر ، معجباً بالمتنبي ، يقلّد
 ديوانه ، وينشره منذ عودته إلى خراسان .

ولن ندهش عندما نرى واحداً من أكثر تلاميذ المتنبي تحمساً له ، وكان
 الشاعر يعدّه أميناً على آرائه ، وهو ابن جني — يدافع عن أستاذه في شرح ،
 وفي مصنّفين صغيرين : أحدهما يدرس ما تناوله الديوان من الفنون الشعرية ،
 والثاني يفنّد الهجمات التي وجهها ابن وكيع المصري إلى الشاعر .

ولم يكن اتجاه الإعجاب بالشاعر خاصاً بابن جني ولا بوسطه ؛ لأننا
 نجده في بخارى عاصمة السامانيين ؛ ففي حكم نوح بن منصور (٣٦٥ -
 ٣٨٧ هـ) ، نجد أبا الحسن محمد بن أحمد المشهور بالمتيسم يؤلف كتاباً
 عنوانه : « الانتصار المنبي عن فضل المتنبي » .

وفي هذا التاريخ تقريباً وضع أبو الحسين حمزة بن محمود الأصفهاني ، أحد

(١) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٥ - ٩ ، وراجع الصناعتين ص ١٣٠ ،

كتاب البويهيين - « رسالة في كشف عيون المتنبي » وفيها يرينا بالشواهد التفوق الأدبي للمتنبي .

وكان هذا الحزب هو الحزب المعارض للنقد الذي وجهه الصاحب بن عباد .
 خصومة بعض الناس للمتنبي ، وغرام البعض الآخر به ، ترك المكان لموقف ثالث ، هو النقد الذي لا ينكر قدر المتنبي ، ويأبى أن يغمض العين أيضاً عن هفوات ديوانه .

وكان القاضي الجرجاني الحائز لفضيحة السبق ؛ فلكي يردّ على ابن عباد ألف كتابه : « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، حيث أراد أن يؤيد ما هو صحيح من الهجمات التي وُجّهت إلى الشاعر ، ويبين أيضاً ما يستحقه بمجادة من مدح المعجبين به ^(١) .

وهكذا كان اتصال القاضي الجرجاني بعصره اتصالاً قوياً عندما أدلى بدلوه في خصومة طال النزاع فيها في العصر الذي عاش فيه .

(١) المرجع السابق : ديوان المتنبي . . . ص ٩ - ١٢ .

الفصل الثالث

جوانب القاضي الجرجاني

١ - آثاره

ألف القاضي الجرجاني :

١ - « كتاب تفسير القرآن المجيد » ، ذكره له ياقوت^(١) ، ولعلّ هذا الكتاب هو الذي جعل الداوودي يؤرّخ للقاضي في كتابه : « طبقات المفسرين » .

٢ - و « كتاباً في الوكالة » ، ذكره له السبكي في كتابه : « طبقات الشافعية » ، وقال : إنّ في هذا الكتاب أربعة آلاف مسألة^(٢) . وذاك يدلنا على علم غزير ، واطلاع واسع ، ولهذا التبحّر في الفقه ، أرّخ له أبو إسحق الشيرازي في كتابه : « طبقات الفقهاء » ، وأرّخ له السبكي في طبقاته ، والتاريخ له في هذا الكتاب يدلّ على أنه كان شافعيّ المذهب .

وكانت دراسته للفقه ، وشهرته به ، هي التي رشّحته لمنصب القاضي .

٣ - وكتاب « تهذيب التاريخ » ذكره له ياقوت^(٣) والشعالبي^(٤) ؛ ويبدو من خطبة هذا الكتاب التي سجلها كتاب اليتيمة^(٥) أنه كتاب في تاريخ الرسول ، وذكر آثاره وأخباره ، ومعارف أحواله وأيامه ، وبيان غزواته ،

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٢) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٨ .

بالإضافة إلى قصص من أنباء الأولين ، وأخبار الآخرين ، وما لهم من آثار في الأرض ؛ وربما أراد بهؤلاء ملوك الفرس وما كان لهم من عظمة وسلطان ، وما تركوه في بلادهم من الآثار .

وكان الثعالبي معجباً بهذا الكتاب قال عنه : « إنه تاريخ في بلاغة الألفاظ ، وصحة الروايات ، وحسن التصرف في الانتقادات » ثم نقل^(١) فصلين منه في كتابه^(٢) .

وذاك يدلنا على أن القاضي الجرجاني تألق في صياغة كتابه ، واختار له لغة رفيعة مؤثرة ، وأنه كان يقف أمام الروايات يدرسها ؛ ليختار أصحها ، ولم يكن يقبل كل ما يقال ، بل كان يحكم عقله في الأخبار المروية ، يبين صحيحها والزائف منها ؛ وعنوان الكتاب ، وهو تهذيب التاريخ يدل على الخطة التي انتهجها صاحبه في كتابة تاريخه من انتقاء صحيح المعلومات ، واختيار صادق الروايات ، ونفي ما لا يثبت للعقل صحته .

وإن هذه الخطة العادلة تتفق مع نفسية مؤلفه قاضياً عادلاً . وفقد كتاب مثله يعدّ خسارة للمكتبة العربية .

وقدّم القاضي كتابه للصاحب بن عباد ؛ فقد قصد به مؤلفه غرضي دين ودنيا : أما الغرض الديني فتاريخ الرسول لأهداف ذكرها القاضي ؛ وأما الدنيويّ فأن يكون الكتاب تذكرة له عند الوزير ، يتجدّد به ذكره بحضوره ، ويتكرر به اسمه في مجلسه .

٤ - وكتاب « الأنساب » ، قال بروكلمان^(٣) : إن ابن خلدون في تاريخه (١ : ١١٠ - أسفل) ذكر للجرجاني هذا الكتاب ، ولا بدّ أن يكون في التاريخ ؛ لانتفاع ابن خلدون به في كتابه .

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٧ و ٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ .

٥ - وله « رسائل » قال عنها ياقوت : إنها مدوّنة ^(١) ، ولكن لم يرد إلينا منها شيء ، ولم يورد الثعالبي منها شيئاً ، ولكنه اكتفى في نثره بما اقتبسه من كتابي الوساطة وتهذيب التاريخ ، وأجرى ذلك مجرى الأنموذج من نثر كلامه ^(٢) .

ولعلّ من هذه الرسائل ما كان سلطانياً ، فقد روى ياقوت أنه أنشأ عهداً للقاضي عبيد الجبار على قاضي الرّى ^(٣) ، ولعله أراد بذلك أن يبين مقدّره على كتابة مثل هذه العهود للصاحب بن عباد ، فمدحه الوزير ببيتين من الشعر ^(٤) .

٦ - وله « ديوان شعر » أثبت له ابن خلكان نقلاً عن أبي إسحق الشيرازي ، وقال السبكيّ في طبقات الشافعية ^(٥) : « وله ديوان مشهور » ، ومن ذلك يبدو أن ابن خلكان لم ير الديوان ، فلو أنه رآه ما نسب ذلك إلى غيره ، فهل بقي الديوان وكان مشهوراً في أيام السبكيّ المتوفى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة هجرية ^(٦) .

وقد ضاع الكثير من شعره ، وما بقي لنا منه قليل ، لا يكون ديواناً « صغيراً » ، وتجد معظمه في معجم الأدباء وبيتية الدهر .

٧ - أما الكتاب الذي وصل إلينا كاملاً من مؤلفاته فهو « الوساطة بين المتنبّي وخصومه » ، وهو كتاب له قيمته الكبرى في النقد الأدبي وقد بينا أن ظهور مثل هذا الكتاب طبيعيّ في العصر الذي ألف فيه ، وأن مؤلفه قاض يريد أن يبيّن ويستبين مواطن الحقّ فيما يقوله الخصوم والأنصار .

ويظهر أنّ السبب المباشر لتأليف هذا الكتاب هو أنّ الصاحب بن عباد وضع رسالته المعروفة في إظهار مساوئ المتنبّي ، فلم ترق القاضي هذه المغالاة التي

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

(٢) بيتية الدهر ٤ : ٧ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .

(٥) ٢ : ٣٠٨ .

(٦) الأعلام للزركلي ١ : ٦١٠ .

يحملها للشاعر الخصوم والأنصار على السواء ، فألف كتابه : « الوساطة » .

وأما السبب الذي دفع الصاحب إلى تأليف رسالته فهو أن الصاحب لم ينس الإهانة التي وجهها إليه الشاعر ، ذلك أن الصاحب كان كاتباً يخدم ابن العميد في الرّى إلى أن استكتبه ابن العميد لمؤيد الدولة أبي منصور بُوَيه أمير أصبهان ، فلما زار المتنبي ابن العميد طمع الصاحب في زيارة المتنبي إياه بأصبهان ، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزّمان ، وهو إذ ذاك شاب لم يستوزر بعد ، فكتب يلاطفه في استدعائه ، ويضمن له مشاطرته بجميع ماله ، فلم يُقِم له المتنبي وزناً ، ولم يحبه عن كتابه ، وقيل إن المتنبي قال لأصحابه : إن غليماً معطاء يريد أن أزوره ، وأمدحه ، ولا سبيل إلى ذلك ؛ فصيّره الصاحب غرضاً يرشقه بالسهم ، ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ^(١) . وانتهى الأمر بأن وضع الصاحب رسالة أعلان منذ بدئها أنه كتبها ليبين ما في شعر المتنبي من العيوب ، وليرد على من يظن الشاعر « معصوماً لا يرى له زلل ، ولا يوجد في شعره خال » ^(٢) ؛ إذ قال في أوّل الرسالة : « وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالأدب والأشعار وقائلها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي ، فقلت : إنه بعيد المرمى ؛ وشعره كثير الإصابة في نظمه ، إلا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء ، فرأيته قد هاج ، وحمى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمرّ النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تحدّاني ، فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره . . . ففعلت ذلك ، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتي ، ولا تتبّع الزّلات من طريقي ، وقد قيل : أيّ عالم لا يهفو ، وصارم لا ينبو ، وأيّ جواد لا يكبو ؟ » ^(٣) .

وتلك الكلمة التي صدر بها رسالته تدل على أمرين :

-
- (١) الصبح المنبي ص ٨٢ .
 (٢) الكشف عن مساوئ المتنبي ص ٢٤٨ .
 (٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

أولهما : أنه لم يضع رسالته ليبين حسنات المتنبي وسيئاته ، حتى « يقدح في المؤلف أنه لم يشر إلى أى حسنة للمتنبي ، ولا أورد له أى بيت من أبياته الجميلة الكثيرة العدد » ، كما انتقده بذلك بعض الباحثين^(١) ، وإنما وضع الرسالة خالصة لبيان العيوب ، فلم يذكر لذلك المحاسن .

وثانيهما : أن صاحب لم يدّع أن شعر المتنبي معيب كله ، بل قرّر أنه بعيد المرمى ، وشعره كثير الإصابة في نظمه ، بل إن اعتذاره بأن العالم قد يهفو ، والصارم قد ينبو ، والجواد قد يكبو ، وتصديره ما عيب عليه « بر بما » ، يدل على أن المعيب من شعره ، وإن كثر ، قليل بالنسبة إلى كثرة الإصابة في نظمه ؛ فلا وجه للدّهشة إذاً من أمر صاحب ، إذ « نراه ينقد المتنبي هذا النقد المرمع أنه قد تأثر به ، وأخذ عنه » ، ولا أن تثبت إليه نسبة الرسالة التي عنوانها : « كتاب الأمثال السائرة من شعر المتنبي » ، وأن يكون صاحب « قد عاد عن تحامله إلى الإنصاف » ، كما توهم ذلك بعض الباحثين^(٢) ؛ لأن صاحب لم يكن منكراً لفضله ، ثم عاد ، فأثبتته ؛ ولا مثبتاً في رسالته ضعف أبيات ، ثم رجع عن عقيدته فيها ؛ ولكن رأيه الصريح فيه أن شعره مصيب تعثر فيه على بعض السقطات ، فأبان عن بعض سقطاته في رسالة الكشف عن مساوئ شعره ، وليس ببعيد أن يبين محاسنه في كتاب آخر ، ولا يكون صاحب بذلك متناقضاً مع نفسه ، حتى يضطر إلى أن نزعم أنه كان متحاملاً عليه ، ثم عاد عن تحامله .

ويمضي صاحب في رسالته ، مورداً أبياتاً له عسرة الفهم ، أو ذات ألفاظ تمجها النفس ، أو معان غير مقبولة ، أو تدل على سقوط نفسه ،

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

أو استعارات غير موفقة ، أو كلمات شاذة أو غريبة ، ، أو أسلوب معقد ، أو مطالع رديئة ، أو ضرورات غير مستساغة ، أو قواف قلقة ، أو كان الشعر لا يناسب المقام ، أو نحو ذلك من وجوه العيب .

والصاحب قد يبين أسباب نقده للشعر ، وأحياناً لا يذكر هذه الأسباب ، وفي كثير من المرات يسخر بالشعر الضعيف الذي يورده للمتنبي ، أو يورد أبياتاً قويّة ، ليرى الفرق بينها ، وبين الرديء الذي يستشهد به للشاعر ، أو يبين نزوله عما سلّم الناس بنزوله من الشعر .

ويبدو من صاحب القسوة في تعليقه على ما يورده من منتقد شعر المتنبي ، وإن كنت تجد نفسك مسلماً بوجهة نظر صاحب في أكثر ما أورده من الأبيات .

ويقف القاضي الجرجاني موقف من يريد أن يكون قاضياً يفصل في الخصومة ، يقول القاضي : « وما زلت أرى أهل الأدب . . . في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقرّظه ، منقطع إليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرّر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ؛ فإن عثر على بيت مختل النظام ، أو نُبّه على لفظ ناقص على التمام ، التزم من نُصرة خطئه ، وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر - وعائب يريد إزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضائله ، ويحاول حطّه عن منزلة بوّاه إياها أدبه ؛ فهو يجتهد في إخفاء فضائله ، وإظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، وإذاعة غفلاته . وكلا الفريقين إما ظالم له ، أو للأدب فيه » (١) .

ولذلك ألّف القاضي الجرجاني كتابه لا ينهج فيه نهج المفرطين في المدح ،

ولا الزّارين على الشاعر بالباطل ، ولكن أن يبين وجه الحق فيما قاله الحصان . ويرى صاحب الوساطة أن المرء إذا دلت على فضله آثار ظاهرة ، ونطقت بتقدمه شواهد صادقة « فصاحبها فاضل متقدّم ، فإن عثر له من بعد على زلة ، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة ، انتحل له عذر صادق ، أو رخصة سائغة ؛ فإن أعوز قيل : زلة عالم ، وقل من خلا منها . وأى الرّجال المهذب » (١) .

ذلك هو المبدأ الذى يدين به القاضى الجرجاني ، ومعناه ألا ينبغي أن تذهب السيئات بالحسنات ، وألا يفخّم من أمر السيئة بل ينتحل لها العذر على أن يكون صادقاً ، وأن يعترف بالخطأ إن لم يمكن التماس العذر . وإنّ هذا المبدأ هو الذى يميّز بين القاضى وخصوم الشاعر وأنصاره ؛ فالأولون لا ياتمسون العذر للزلات ، ويمضون معظّمين من شأنها ، والآخرون لا يعترفون بالخطأ ، بل يلتمسون معاذير لا يصححها العقل ، ولا يرضاها . وربما كان تعظيم السيئات فى الرسالة التى كتبها الصاحب بن عباد هو الذى حفز القاضى إلى تأليف كتابه ، يقول الشعابى : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوئ المتنبي ، عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه » (٢) .

وبعد فتى ألف القاضى هذا الكتاب ؟

الذى أرجّحه أن الصاحب ألف رسالته بعد موت المتنبي وقبل موت ابن العميد ، وقبل أن يصبح هو وزيراً ومعنى ذلك أن الرسالة ألفت بعد سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهى السنة التى مات فيها المتنبي (٣) ، وقبل سنة ستين وثلاثمائة ، وهى السنة التى مات فيها ابن العميد (٤) .

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٧ .

(٤) المرجع السابق ٢ : ٥٩ .

وسبب هذا الترجيح أن مقدمة الرسالة تشعر بأن الحديث عن شعر رجل أصبح في ذمة التاريخ ، كما أن الهجوم العنيف الذي في الرسالة يدل على أن الصاحب لا يخشى أن يهجو الشاعر بقصيدة لا أعتقد أن ابن عباد يخاطر بنفسه ، فيستجلب غضب المتنبي فينظمها . وقد قرّر ذلك أيضاً المستشرق : بلاشير^(١) .

وأما أنه كتبها قبل موت ابن العميد فوجه ترجيحي له أن الصاحب عندما كان يذكره لا يقول بعد اسمه : « رحمه الله » ، وهو أقل ما ينبغي أن يقوله الصاحب لو أن ابن العميد كان قد مات .

وكان « ابن العميد » نفسه كثير الانتقاد لأبي الطيب^(٢) ، وربما أراد الصاحب بذلك أن يرى ابن العميد مدى موافقة الصاحب له في رأيه في الشاعر .

ولذلك لا أتفق مع الأستاذ بلاشير الذي جعل تأليف رسالة الصاحب حول سنة ٣٦٤ هـ^(٣) .

والذي أرجحه أيضاً أن القاضي الجرجاني لم يؤلف كتابه عقب تأليف الصاحب رسالته ؛ لأن ما قاله له بعض أهل نيسابور في كتاب الوساطة ، وهو :

أيا قاضياً قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه^(٤)
كتاب الوساطة في حسنه لعقد معاليك كالواسطه^(٥)
يرجح أن المؤلف كان قد تولى منصب القضاء ، وهو قد تولى هذا المنصب ،

(١) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٦ .

(٢) النقد النهجي عند العرب ص ٢٠٦ .

(٣) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٦ .

(٤) شاحطة : بعيدة .

(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

على ما أرجح بعد أن صار الصاحب وزيراً ، والصاحب لم يتول هذا المنصب إلا سنة ٣٦٦ هـ (١) .

وقد صار لقب القاضى ملائمة لمؤلف الوساطة ما بقي من عمره ، فلا سبيل إلى القمطع بأنه ألفه وهو قاضى ن حياة الوزير الصاحب .

بل إن إيراد البيت الوزير الذى استشهد به فى باب التصحيح (٢) مسبقاً باسم الصاحب ، وهو إسماعيل بن عباد ، من غير أن يلقبه بالوزير - قد يوحى بأن كتاب « الوساطة » ألف بعد موت الصاحب ، وأن الوزير أصبح فى ذمة التاريخ ، يتحدث المؤلف عنه ، كما يتحدث عن الشعراء السابقين .

وليس فيما بين يدي من المراجع ما يجعلنى أقطع فى ذلك برأى .

ويظهر أن كتاب « الوساطة » نال حظاً كبيراً من الشهرة يصفها الثعالبي ؛

إذ يقول : « فصار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح » (٣) .

كما يصف مؤلفه بقوله إنه « أحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد » .

(١) الصاحب بن عباد ص ٢١ .

(٢) الوساطة ص ٤٥ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .

٢ - آرائه في النقد الأدبي

كانت الوساطة بين المتنبي وخصومه مجالاّ عرض فيه القاضي آراءه في النقد الأدبي ؛ ليتخذ ذلك قاعدة يبني عليها أحكامه في المتنبي وغيره من الشعراء ؛ وهذه بعض آرائه :

(١) إنتاج الشعر :

وأول ما عرضه من ذلك رأيه في الخصائص التي لا بد منها لإنتاج الشعر ، وأنها : الطبع ، والذكاء ، والرواية ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ^(١) .

وإذا كان القاضي قد جعل الشعر علماً من علوم العرب ، فإنّ التفرقة بين العلم والفن لم تكن معروفة في عصره ، ولذلك ينبغي ألا نفهم من « العلم » في كلامه ما نفهمه اليوم من هذه الكلمة .

ونظرة القاضي صائبة إلى مدى بعيد ؛ فالشاعر لا بدّ له من هبة تولد معه ، ولا يستطيع اكتسابها ، والشعراء يختلفون في هذه الهبة أو الطبع ، كما سماه الجرجاني ، فمنهم فياض الطبع ، ومنهم من هو ذو هبة محدودة .

وأما الذكاء فبه يلمح الشاعر ما لا يلمح غيره من الناس ، ويدرك من الصّلات والمفارقات ما لا يدركه سواه ؛ وبذلك يتميّز عن غيره ، ويتفرد بألوان من الإحساسات والمشاعر .

ويختلف الشعراء في الذكاء أيضاً ، فمنهم الأملعى المتوقد ، ومنهم دون ذلك . ويريد القاضي بالرواية أن يعيش الشاعر مع النصوص الأدبية ، لصقل

(١) الوساطة ص ١٤ .

طبعه وذكائه ، ولذا كانت حاجة المحدث إلى الرواية أمسّ ، واحتياجه إلى كثرة الحفظ أظهر ؛ لأنّ المطبوع الذكيّ لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلاّ رواية ، ولا طريق للرواية إلاّ السمع ، وملاك الرواية الحفظ ، وبالرواية يبلغ الشاعر حظاً كبيراً من براعة القول .

وقد أدرك النقاد ما لمخالطة النصوص الأدبية من أثر في الشاعر ، حتى عدها ابن خلدون العنصر الأساسي لتكوين ملكة البلاغة ، إذ يقول : « وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب ، وتكرّره على السمع ، والتفطّن لخواص تركيبه » (١) .

وما زلنا إلى اليوم نؤمن بأثر حفظ النصوص الأدبية ، ودراستها في صقل أسلوب الشاعر ، وتهذيب لغته .

وبالدّربة يظهر الطبع الكامن ، ويبلغ أشدّه ، وبدونها يذبل ذلك الطبع ويدوى ، كبذرة أهمل أمرها ، فلم تنبت .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً إلى ما ذكره القاضي فذلك هو الثقافة الواسعة التي تمدّ الشاعر بما يزيد إحساسه عمقاً ، وشعوره قوة وسعة .

(ب) اختلاف الشعر :

وباختلاف حظوظ الشعراء من الأمور الأربعة التي ذكرها ، وهي : الطبع والذكاء والرواية والدّربة ؛ يختلف الشعراء في الإبداع والتبريز . أما رقّة الشعر وصلابته فمرجعهما ثلاثة أمور :

أولها : اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الحلقة ، وأنت ترى ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك : ترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقّد الكلام ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٦ .

وعر الخطاب ، وتحسّ بذلك أيضاً في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته^(١) .
 وثانيها : البداوة ، فمن شأنها أن تحدث بعض ذلك ؛ ولذلك تجد شعر
 عدى ، وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ؛ لملازمة عدى
 الحاضرة ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب^(٢) ؛ ولذلك نرى الشعراء
 يختارون الكلام اللين السهل بعد مجيء الإسلام ، واتساع ممالك العرب ، وكثرة
 الحواضر ، ونزوع الناس من البوادي إلى المدن^(٣) .
 وثالثها : الغرض الشعري ؛ فإنك ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبيل
 العاشق المتيم ، والغزل المهالك^(٤) .

ومعنى ذلك أن بعض أغراض الشعر يفرض الرقة في معالجته كالغزل مثلاً ؛
 لأن القاضى يرى ألا تجرى أنواع الشعر كله مجرى واحداً ، بل ينبغى أن تقسم
 الألفاظ على رتب المعانى ؛ فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المدح كالوعيد ،
 ولا الهجاء كالاستبطاء ، ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض مثل التصريح ،
 بل ترتب كلاً مرتبته ، وتوفيه حقه ؛ فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افتخرت ،
 وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن
 المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ؛
 فلكل واحد من الأمرين نهج يخصّه ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه^(٥) .

(٢) المثل الأعلى للشعر :

صوّر القاضى الجرجاني ما يراه مثلاً أعلى للشعر ، وأنّ ذلك يتحقق
 بشروط تكون في اللفظ والأسلوب ، وصفات يتسم بها المعنى .

(١) الوساطة ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) الوساطة ص ٢٣ .

أما تلك التي تكون في المعنى ، فألا يكون مبتدلاً^(١) ، وأن يكون صحيحاً شريفاً ، مصيباً في الوصف ، مقارباً في التشبيه ، إنسانياً يجري على الألسن مثلاً وحكمة^(٢) . ولم يفسر القاضي ماذا يريد بالابتدال ، ولا ما يقصده بالشرف ؛ وربما كان مراده منهما البعد عن المعاني الدارجة الشائعة بين الناس ؛ فإننا نرى من الأمثلة التي جاء بها قول البحتری :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا	خيال إذا آب الظلام تأوَّبا ^(٣)
سرى من أعلى الشام يجلبه الكرى	هبوب نسيم الرّوض تجلبه الصّبا
وما زارني إلا وَلِهتُ صباة	إليه ، وإلا قلت : أهلاً ومرحباً
وليلتنا بالجزع بات مساعفاً	يريني أناة الخطو ، ناعمة الصّبا
أضرت بضوء البدر ، والبدر طالع	وقامت مقام البدر لما تغيباً
ولو كان حقاً ما أتاه لأطفأت	غليلاً ، ولافتكت أسيراً معذباً
علمتلك إن منيت منيت موعداً	جهاماً ، وإن أبرقت أبرقت خلّيباً ^(٤)
فوا أسنى ! حتّام أسأل مانعاً	وآمن خوّاناً ، وأعتيب مذنباً ^(٥)

وبنظرة إلى هذا الشعر لا نرى معانيه مما تلوكه ألسن العوام ، حتى إن الشاعر عندما أراد أن يعقد صلة بينها وبين البدر لم يلجأ إلى التشبيه المألوف ، ولكنه أحسّ بحبيبه أجمل من البدر ، فإذا نظر إليها والبدر يتلألأ في السماء ، يرى وجهها أبهى منه طلعة وأجمل ضياء ؛ فلا عجب أن أضاء له وجهها ظلمات السدف بعد أن غرب بدر السماء .

ولا ينغص على هذا الاستنتاج إلا قول الشاعر لحبيبه : أهلاً ، ومرحباً ، فهو من الأمور الدارجة التي لا ارتفاع فيها عن السوق والدّهماء ، ولكن للشاعر عذراً في ذلك ؛ فقد صور لنا ما وقع عندما رأى طيف الحبيبة .

(١) الوساطة ص ٢٦ . (٢) الوساطة ص ٣٢ ، ٣٣ . (٣) تأوب : رجع ليلاً .

(٤) الجهام : السحاب لا ماء فيه . والبرق الخلب : المطمع الخلف .

(٥) الوساطة ص ٢٥ .

ويكون المعنى مبتدلاً كذلك إذا تداوله الشعراء ، وأكثروا من ذكره ، كما نرى ذلك في عيون الجآذر^(١) وعيون الغزلان^(٢) .

أما المعنى الإنساني فهو الذى يجد فيه الناس صدى لما يجول في نفوسهم ، ومعبراً عما يشعرون به ، فيجرب البيت الذى تضمن هذا المعنى على الألسنة ، ويسير في الآفاق .

ولا ينبغي أن يغض المعنى من شأن الشعر إذا لم يكن دينياً ؛ « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحي اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية . . . ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر »^(٣) . وتلك حرية فكرية لناقد من رجال الدين .

ولا يقبل القاضى الإحالة في المعنى ، ولذلك لم يقبل قول أبي نواس :
وأخففت أهل الشرك ، حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
ويقول إنه من المحال الفاسد^(٤) .

كما أنه لا يقبل الإفراط ، ويراه منقصة ذميمة ، وإن كان يرى القدماء قد أتوا به ، وجاء الذين بعدهم فرأوا سبيلاً مسلوفاً ، وطلب المتأخر الزيادة ، ولم يقف عند حدّ المتقدّم ؛ فاجتذبه الإفراط إلى النقص ، وعدل به الإفراط نحو الذم^(٥) .

وأما الاستعارة فلها قيمتها الكبرى في البلاغة ؛ فهي أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول في التوسع والتصرف^(٦) ، وتكسو الكلام بهجة وجمالاً^(٧) .

(١) الوساطة ص ٣٠ .

(٢) الوساطة ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) الوساطة ص ٦٢ .

(٤) الوساطة ص ٤٤١ .

(٥) الوساطة ص ٤٣٧ .

(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .

(٧) الوساطة ص ٣٠ .

ويعرّف القاضى الاستعارة بأنها ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها ^(١). ويفرق بينها وبين التشبيه الذى يجمع بين الأصل والاسم المستعار ، كقول أبى نواس :

والحبّ ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا
إذ المعنى : الحبّ كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ^(٢).

ويرى القاضى الجرجاني أنّ ملاك الاستعارة تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ^(٣).

وعلى هذا الأساس تكون الاستعارة جيدة ، وإذا خالفته كانت مذمومة رديئة ، فإذا جاءتلك الاستعارة كقول زهير :

وعرّى أفراس الصبّا ورواحله

وقول لبّيد : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن الطّريّة :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح
فقد جاءتلك الاستعارة المحببة إلى النفوس ^(٤).

فإذا استمعت إلى قول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدايح ضربت بأبواب الملوك طبولا
فاسدد مسامعك ، وإياك والإصغاء إليه ؛ فإنه مما يصدئ القلب ، ويطمس البصيرة ، ويكدّ القريحة ^(٥).

ويعيب القاضى على أبى تمام أنه هو الذى أخرج الاستعارة عن نهج الاقتصاد الذى كان يجرى عليه الشعراء قبله ^(٦).

(١) الوساطة ص ٤٠ .

(٢) الوساطة ص ٤٠ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) الوساطة ص ٣٣ - ٣٩ .

(٥) الوساطة ص ٣٩ - ٤٠ .

(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .

ولا يزال هذا الأساس الذي اختاره صاحب الوساطة أساساً صالحاً للاستعارة .

أما عناية القاضي الجرجاني بالأسلوب وتقديره لأثره القوي في النفس فبالغة حدّاً كبيراً ، وحسبك أن تسمعه يقول : « وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرّشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذى الرّمة في القدماء ، والبحتري في المتأخرين ؛ وتتبع نسيب متيمى العرب ، ومتغزلى أهل الحجاز ، كعمر ، وكثير ، وجميل ، ونصيب ، وأضرابهم . . . ثم انظروا حكم وأنصف ، ودعنى من قولك : هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلا ما قاله فلان ! فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وإنما تفضى إلى المعنى عند التفتيش والكشف » (١) .

ومعنى ذلك أن جمال الأسلوب هو أول ما يأسرك في الشعر ، ويملك عليك نفسك ، أما المعنى فإنه يؤثر فيك بعد أن تقف لتفتش عنه وتكشفه .

وإذا كان القدماء يؤثرون الجزالة في الألفاظ ، فإن « القاضي » يرى الزمن قد تغير ، كما أسلفنا ، وهو لذلك يؤثر السهل الرّشيق من الأساليب ، ولكنه لا يريد بالسهل الضعيف الرّكيك ، ولا بالرّشيق الخنث المؤنث ، بل يريد النمط الأوسط : ما ارتفع عن الساقط السوّى ، وانحطّ عن البدوى الوحشى (٢) . كما يرى أن الأساليب يجب أن تتنوع بتنوع الأغراض والمقاصد (٣) .

ويؤثر القاضي الأسلوب الطبيعى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، ويتجنب الحمل على نفسه والعنف بها (٤) . وقد يتوهم من ذلك أن الكلام الجيّد ما خرج عن طبع صاحبه ، وإن لم يكن هذا الطبع مهذباً مصقولاً ، فقال : « ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ،

(١) الوساطة ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) الوساطة ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) الوساطة ص ٢٤ .

وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصوّر أمثلة الحسن والقبح»^(١) .
وبرغم أن القاضي ، ربما وجد في الشعر الذي عنى صاحبه بإدخال الصناعة
فيه جمالا وفنونا من الحسن ، يرتاح أكثر ما يرتاح إلى الأسلوب البعيد عن
الصنعة والزخارف ، فتراه يروى قول أبي تمام :

دعني وشرب الهوى ، يا شارب الكاس . فإنني للذي حسنيته حاسي
لا يوحشنيك ما استعجمت من سقمي . فإن منزله من أحسن الناس
من قطع ألفاظه توصيل مَهْلَكَتِي . ووصل الحاظه تقطيع أنفاسي
متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ما كان قطع رجائي في يدي ياسي

فإنه علّق على هذه الأبيات ، فقال : « لم يخل بيت منها من معنى بديع ،
وصنعة لطيفة ؛ طابق ، وجانس ، واستعار ؛ فأحسن ؛ وهي معدودة في المختار
من غزله ، وحق لها ؛ فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن ، وأصنافا من
البديع ؛ ثم فيها من الإحكام ، والمتانة ، والقوة ما تراه ؛ ولكنني ما أظنك
تجد له من سورة الطرب ، وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار^(٢) :
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار^(٣)
ألا يا حبذا نفحات نجد وريّا روضه غبّ القطار^(٤)
وعيشك إذ يخل القوم نجداً وأنت على زمانك غير زار^(٥)
شهور ينقضين ، وما شعرنا بأنصاف لهنّ ولا سرّار^(٦)
فأما ليلهنّ فخير ليل وأقصر ما يكون من النهار

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المنيفة : ماء تميم . والضمار : موضع .

(٣) الشميم : مصدر شم . والعرار : زهر أصفر طيب الرائحة .

(٤) نفح الطيب : انتشرت رائحته . والريا : الريح الطيبة . وغب : بمعنى بعد . والقطار :

جمع قطر ، وهو : المطر .

(٥) زرى عليه عمله : عابه عليه .

(٦) السرار : آخر ليلة من الشهر .

فهو ، كما تراه بعيد عن الصنعة . . . سهل المأخذ ، قريب التناول ^(١) .
والقاضي يثنى على الشعر إذا خلا من الصنعة وبعد عن البديع ^(٢) .

ويرى أن ألوان البديع التي كانت تقع في شعر القدماء كان لها جمالها ،
وتتميز أبياتها عن أخواتها في الرشاقة واللاطف ؛ لأنها كانت تقع على غير عمد
وقصد ، بل اتفاقاً في البيت بعد البيت ؛ وإنما الذي أفسدها هو تكلف
المحدثين الاحتذاء عليها ، والقصد إليها ، فأحسن بعض ، وأساء آخرون ^(٣) .
وقد أورد القاضي بعض ألوان البديع ؛ من طباق ، وجناس ، وتقسيم ،
وغيرها ، وهو لا يحمدها إلا إذا جاءت غير متكلفة ، « فمع التكلف المقت ،
وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق ،
وإخلاق الديباجة » ^(٤) .

الأسلوب الجيد عند القاضي هو الذي خلا من التعقيد ، وفساد الترتيب ،
واضطراب النسيج والغموض ، ولذلك كانت هذه العيوب مجال وقفات منه
في شعر المتنبي يلتمس له فيها المعاذير ^(٥) . وبعضها مما عيب به أبو تمام ^(٦) .
وقد سبق أن بينا رأيه في غموض أبيات المعاني « فليس في الأرض بيت
من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن
إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وتشغل باستخراجها
الأفكار الفارغة » ^(٧) .

ولأول مرة يصدر القاضي الجرجاني مثل هذا الحكم العام الذي تحرّز من
مثل إصداره في موضع آخر ؛ لأنه لم يطلع على شعر الأوائل والأواخر ^(٨) .

(١) الوساطة ص ٣١ - ٣٢ . (٢) الوساطة ص ٣٠ .

(٣) الوساطة ص ٣٣ .

(٤) الوساطة ص ١٨ .

(٥) الوساطة ص ١٧٥ .

(٦) الوساطة ص ٤٣١ .

(٧) الوساطة ص ١٥٦ .

(٨) الوساطة ص ٢٢ .

وأغلب الظن أن القاضي الجرجاني عمّم حيث ينبغي التخصيص ؛ لأننا إذا عددنا من أبيات المعاني حكم المتنبي وحكم غيره من الشعراء ، وجدنا كثيراً منها واضحاً لا يكلفنا عناء البحث والتنقيب .

وللقاضي الجرجاني بعد ذلك رأى في القصيدة المثلى ، فهي التي ترى فيها « تناسب أبياتها وازدواجها ، واستواء أطرافها واشتباهاها ، وملاءمة بعضها لبعض ، مع كثرة التصرف على اختلاف المعاني والأغراض » ^(١) .

ولعله يقصد بتناسب الأبيات وازدواجها ، التحام معانيها ، وشدة تماسكها ، ويريد باستواء الأطراف واشتباهاها ، وحدة نسج القصيدة من أولها إلى آخرها ، حتى يشبه بعضها بعضاً ، وذلك كله برغم اختلاف المعاني والأغراض .

(د) السرقة في الشعر :

يعدّ القاضي الجرجاني التعمق في معرفة هذا الباب ضرورياً لمن يريد أن يعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر ^(٢) .
وخلاصة رأيه في ذلك :

- ١ - أن الأمور المقررة في النفوس ، التي يشترك فيها الشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، لا سرقة فيها ؛ لأنها مشترك عام الشركة ^(٣) .
- ٢ - وإن كان المعنى مخترعاً مبتدعاً ، ولكنه صار مستفيضاً متداولاً ، لا يعد مسروقاً كذلك ، لأنه استفاض على ألسن الشعراء . كتشبيه الفتاة بالغزال في جيدها وعينيها ^(٤) .

(١) الوساطة ص ٣٠ .

(٢) راجع ما اقتبسناه من هذا الفصل في « منتخبات من آثاره » .

(٣) الوساطة ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) الوساطة ص ١٧٩ - ١٨٠ .

٣ - وتفاضل الشعراء في هذه المعاني المتداولة بزيادة يهتدى إليها أحدهم دون غيره ؛ فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع . وبهذه الزيادة يصبح ملكاً لصاحبه ، فإذا أخذ منه عد مسروقاً ، وذلك كقول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُرٌ تجددُ متونها أقلامها^(١)

والشعراء يشجعون على مثل هذه الزيادة ، ويمدحون بها^(٢) .

٤ - وإذا أخذ الشاعر معنى لغيره فزاد فيه زيادة حسنة ، أو اختصره إن كان مطوّلاً - فلا عيب عليه فيما فعل ، فإذا سمعت مثلاً قول أبي دهبيل الجمحي :

وكيف أنساك ؟! لا أيديك واحدة عندي ، ولا بالذي أوليت من قديم علمت أنه من قول النابغة :

أبي غفلتي أنى إذا ما ذكرته تقطع حزن في حشا الجوف داخل
أن تلادى إن نظرت ، وشيكتي ومهرى ، وما ضمت إلى الأنامل^(٣)
وحبائك ، والعيس العتاق كأنها هيجانُ المها تردي ، عليها الرحائل^(٤)

قال القاضى : « فإذا أنصفت أبا دهبيل عرفت فضله ، وشهدت له بالإحسان ؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل في : « لا أيديك واحدة عندي » ؛ ثم أضاف إليه : « ولا بالذي أوليت من قدم » ؛ فتم المعنى ، وأكدّه أحسن تأكيد^(٥) .

٥ - وإنما العيب نقل المعنى والكثير من الألفاظ^(٦) .

(١) الوساطة ص ١٨١ - ١٨٢ . وجلا عن بلده : خرج . والزبر : جمع زبور . وهو : الكتاب . وتجدد : من التجديد . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر .

(٢) الوساطة ص ١٨٣ .

(٣) التلاد : المال كان أو ولد في بيتك من قديم . والشكة : السلاح .

(٤) الحباء : العطية . والعيس : كرام الإبل . والهيجان : الحيار . والمها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . وردت الفرس : رجمت الأرض بحوافرها في سيرها .

(٥) الوساطة ص ١٨٣ ، وستعود إلى مناقشة القاضى في ذلك عند الحديث عن ذوقه .

(٦) الوساطة ص ١٨٥ .

٦ - على أنه ينبغي ألا يقصر الناقد السرقة على ما ظهر دون ما كمن ؛ بل عليه أن يدرك تناسب قول لبيد :

وما المالُ والأهلون إلاّ ودائع
وقول الأفوه الأودى :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعار
وإن كان هذا ذكر الحياة ، وذلك ذكر المال والولد ؛ وكان أحدهما جعل وديعة ، والآخر عارية ^(١).

ويعرف تفنن الشعراء في السرقة ، فيكون البيت في النسيب ، فيأخذ الشاعر معناه في بيت مدح مثلاً ، فقول كثير في الغزل :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنما
أخذ معناه أبو نواس فقال مادحاً :

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان ^(٢)

بل إن من لطيف السرقة ما جاء على سبيل القلب كقول المتنبي :
أحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه
نقض بـ قول أبي الشيص :

أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك ، فليمنى اللوم ^(٣)

٧ - ومن الواجب على الناقد أن يتثبت قبل أن يحكم بالسرقة ^(٤) ،
وأن لا يحكم بها لمجرد التشابه بين الألفاظ ^(٥) ، أو للعصبية والهوى ^(٦).

٨ - ويرى القاضى أن السرقة داء قديم ، وكان أكثره ظاهراً كالتوارد ،
ثم تفنن المحدثون في إخفائه بالنقل والقلب وغيرهما ؛ ويلتمس القاضى العذر

(٢) الوساطة ص ١٩٩ .
(٤) الوساطة ص ٢٠٠ و ٢٠٨ .
(٦) المرجع السابق نفسه .

(١) الوساطة ص ١٩٥ .
(٣) الوساطة ص ٢٠٠ .
(٥) الوساطة ص ٢٠٢ .

لأهل عصره ومن جاء بعده إذا أخذوا عن السابقين : « لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني ، وسبق إليها ، وأتى على معظمها » ^(١) .

٩ - ومن أكبر العيوب عند القاضى الجرجاني السرقة والتقصير ^(٢) .

وإذا ذكرنا القيد الذى ذكره القاضى الجرجاني من ضرورة الزيادة فى المعنى ، أو التجويد فى الأسلوب ، أدركنا أنه لا يمنع استفادة المحدث من أفكار سابقيه ، على ألا يكون كلا عليهم ، بل عليه أن يضيف إلى الميراث القدر الجديد ، فتنبو المعانى مع الزمن ، وتتجدد الأساليب .

كما أن فى دعوته إلى البحث عن السرقات الخفية ، وفى عيبه أن يعيش الشاعر على فتات موائد سواه - دعوة للشعاع إلى الاعتماد على أنفسهم ، والتفتيش عن مواهبهم ، حتى يبتكروا المعانى ، وينقبوا عنها .

(هـ) مذهبه التأثرى والدوق :

يعتمد القاضى الجرجاني اعتماداً كبيراً فى تقدير الأثر الأدبى على ما يحدثه هذا الأثر فى النفس ، ويقيس الجودة بمقدار هذا الأثر ، كما يقيس الرداءة بمدى نبو القلب ونفوره ؛ فتسمعه يقول معلقاً على أبيات فى الغزل للبحترى :
« تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب ، إذا سمعته ، وتذكر صبرة إن كانت لك ، تراها ممثلة لضميرك ، ومصورة تلقاء ناظرك » ^(٣) .

فهو يعتمد ، كما ترى ، على مقدار إحساس السامع بالطرب ، ومدى إثارته لعواطفه ، ولعل القاضى يرى أن سبب هذه الإثارة ، هو أن الأثر الأدبى يصور شعور السامع ، ويعيد إليه صوراً كامنة فى نفسه .

(١) الوساطة ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) الوساطة ص ٣٧ .

(٣) الوساطة ص ٢٦ .

ويقول في موضع آخر متحدثاً عن أبيات جيدة وأخرى رديئة : « إنه يميّز بقبول النفس ونفورها ، وينتقد بسكون القلب ونبوّه »^(١).

ولذلك أشاد القاضى الجرجاني بجمال الأسلوب ؛ لأنه أول ما يفجأ القارئ كما سبق أن ذكرنا .

والشعر لا يؤثر في النفوس إذا احتاج إلى الجدل والمحااجة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها رونقه وحلاوته^(٢).

والذى يحكم بجودة الشعر أو رداءته إنما هم النقاد الذين أوتوا ذوقاً صقله التهذيب وإدمان الرياضة ، ووهبوا دقة في الفطنة ، وصفاء في القريحة ، ومقدرة على الغوص ؛ فلكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ؛ فقد يكون الشيء متقناً محكماً ، ولا يكون حلزاً مقبولاً ، ويكون جيداً وثيقاً ، وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً ، وقد نجد الصورة الحسنة والحلقة التامة مقلية ممقوتة ؛ وأخرى دونها مستحلاة موموقة^(٣). والحكم في ذلك إنما هم أهل الصنعة المدربون .

ويعتمد هؤلاء النقاد في إصدار أحكامهم على ما منحوه من الذوق المرفف ، الذى أدمن على مخالطة النصوص الأدبية ، والتعرف على ما فيها من أسباب الجمال ؛ وهم لذلك يستطيعون تقويم الشعر ، ومعرفة جوده ورديئه .

وهؤلاء النقاد قد تمكنهم الحجاج من إبراز أسباب ما يرون من الصراب أو الخطأ^(٤) ، والكشف عن أسرار الجمال أو القبح .

وأحياناً يحسون بالأمر في قلوبهم ، ولكنهم لا يستطيعون الإفصاح عنه بالسنتهم ، كما حدث بين أحد المعترضين على أبى الطيب في قوله :

(١) الوساطة ص ٤٤٢ .

(٢) الوساطة ص ٩٦ .

(٣) الوساطة ص ٩٦ - ٩٧ .

(٤) الوساطة ص ٤٤٢ .

مُسْرَّةٌ في قلوب الطيب مفرقُها وحسرة في قلوب البيّض واليلب^(١) إذ جعل للطيب والبيّض واليلب قلوباً ، لأن المتنبي يريد أن يقول : إن قلب الطيب مسرور ، لأنه يخالط مفرق شعرها ، في حين أن قلب الخوذة والدروع متحسر ؛ لأنها لا تلبسهما ، إذ هي لا تقا تل في ميدان القتال .
فرد عليه القاضي بأن ابن أحرر يقول :

ولت عليه كل معصفة هوجاء ليس للبتها زبر^(٢)
وما الفصل بين من جعل للريح لبّاً ، ومن جعل للطيب والبيّض والدروع قلباً ؟ فلم يحرج الخصم جواباً غير أن قال : أنا استببرت ، ووجدت بين استعارة ابن أحرر للريح لبّاً ، واستعارة أبي الطيب للطيب قلباً بوناً بعيداً ، وربما قصر اللسان عن مجازاة الخاطر ، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس^(٣) .

وقد استطاع القاضي الجرجاني أن يصل إلى الفرق بين الاثنين : « وذلك أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة ، وزالت عن الترتيب ، شبهت بالأهوج الذي لا مُسَكَّةَ في عقله . . . ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلاً »^(٤) .

وحيثما يحس الناقد بذوقه الجمال أو القبح ، فإذا سئل عن سبب حكمه أقام السائل مقام المتعنت ، وكان أقصى ما في وسعه أن يقول : موقعه من القلب الطيف ، وهو بالطبع أليق ، وربما حاجتك بظاهر تحسسه النواظر ، وأنت تحيله على باطن تحصّله الضمائر^(٥) .

وليس كل ذوق يرضاه القاضي حكماً ، بل الذوق الذي أدمن الرياضة ، وكان صاحبه شديد الفطنة ، صافي القريحة ، بعيد الغرض^(٦) .

(١) اليلب : الدروع تتخذ من الجلود . والبيّض : جمع بيضة ، وهي : الخوذة من آلات الحرب ، لوقاية الرأس . (٢) الوساطة ص ٤٤٣ . وزبره عن الأمر : منعه ، ونهاه عنه . (٣) الوساطة ص ٤٤٣ . (٤) الوساطة ص ٤٤٤ . (٥) الوساطة ص ٤٢٧ وأرجع إلى النص في فصل المختار من آثاره . (٦) المرجع السابق نفسه .

ويرى القاضى الجرجاني أن أشد ألوان النقد هو هذا الذى يحتاج إلى الذوق الموهوب وإدمان الرياضة . أما أقل الناس حظاً فى النقد فهؤلاء الذين يقفون عند الأمور التى لا تحتاج إلى ذرق كالاقتصار على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة ، وما فى الكلام من تجنيس وترصيع ومطابقة ، أو عند المعانى الغامضة ، لا يبالى ظهورها فى نظم مضطرب ، أو نسج مهلهل ، لا يقابل بين الألفاظ والمعانى ، ولا يرى الحسن إلا ما أفاده البديع وما جاء به التصنيع (١) .

ويكاد نقاد العرب يجمعون على أن الذوق المهدّب المثقف هو القيصلى فى الحكم على النصوص الأدبية ، وإلى هذا الحد يقف القاضى الجرجاني ، حتى إذا جاء عبد القاهر لم يقف عند هذا الحد ، بل رأى أنه لا بد لكل كلام تجده حسناً من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم ، وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل إلى التعبير عنه ، ودليل على صحة ما ادّعيته ؛ ويرى أن الإيمان بذلك يفتح باباً تطلع منه على فوائد جليلة ، ويجعلك على بينة من العلم ؛ فلا تقبل دعوى من غير برهان ، ولا تدلى بحكم بلا دليل ، ولا يسألك السائل عن حجة يردّ بها على الخصم ؛ فلا ينصرف عنك بما يقنعه ، ويكون كل ما يجده منك أن تحيله إلى نفسه ، وتقول له : إننى نظرت ، فرأيت فى الكلام فضلاً ومزّة ، ووجدت لذلك أريحية ؛ فعليك أن تنظر ؛ لتعرف كما عرفت ؛ وينتج من ذلك أنه إذا استطاع أن يصل كما وصلت ، فقد آمن بما آمنت ، وإلا تناكرتما ، وكان فى نظرك ضعيف التأمل ، سيئ الاستنباط ، فاسد الذوق ، وكنت فى نظره فاسد التخيل .

ويؤكد عبد القاهر أنه من الآفة الزعم بأنه لا سبيل إلى معرفة العلة فيما به كان الكلام الجميل جميلاً ، ويرى ذلك توانياً وكسلاً من الناقد ، وأن عليه أن يبحث عن السبب حتى يهتدى إليه .

ومع أن عبد القاهر يعلم أن الناقد أحياناً لا يستطيع أن يصل إلى معرفة سبب الجمال — لا يرى ذلك وسيلة لليأس من الوصول إليه ، ويدعو إلى أن يتخذ المرء ما يعرف وسيلة إلى ما لا يعرف ، وذلك أخرى من أن يسد باب المعرفة على نفسه ، ويمنعها من الفهم والتفهم ، ويعودها الكسل والهويني^(١) .

فليت شعري أكان عبد القاهر يحدّر من رأى أستاذه : القاضي الجرجاني من أن السائل عن أسرار الجمال متعنت . وأن ذلك أمر سبيل إدراكه البصيرة ، وقلما استطاع أن يفصح عنه اللسان^(٢) .

إننا من غير ريب ننتقل مع عبد القاهر خطوة إلى الأمام في النقد الأدبي إذ نحاول معرفة الأسباب ، ووضع القواعد لهذا الفن الرفيع .

٣ - ذوق القاضي الجرجاني

للقاضي الجرجاني ذوق صائب غالباً فيما يختاره للشعراء من جيّد الشعر ورديئه ، بل إنه عند ردىء الكلام يطلب إلى السامع أن يسدّ مسامعه ، ويستغشى ثيابه ، حتى لا يرى ولا يسمع^(٣) ؛ وعند القول الجيّد يعجب به الإعجاب البالغ ، ولنصغ إليه يعرض قصيدة لأبي تمام جمعت بين الجيّد والرديء فيدل في حكمه على ذوق نقي ممتاز ، فيقول : « ربما افتتح الكلمة وهو يجري مع طبعه ، فينظم أحسن عقد ، ويختال في مثل الروضة الأنيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة^(٤) ، فيتسّم أوعر طريق ، ويتعسف أحسن مركب ، فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قد قدّم ، كما فعل أبو تمام في كثير من شعره ، ومنه قوله :

(١) عبد القاهر الجرجاني ص ٨٩ - ٩٣ ، راجع إلى دلائل الإعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٢٦ وأسرار البلاغة ص ٢٦٢ .

(٢) راجع نص القاضي الجرجاني في فصل المنتخبات من آثاره . والوساطة ص ٤٢٦ .

(٣) الوساطة ص ٤٠ . (٤) يريد عادة الرغبة في الاقتداء بالأوائل .

لو حار مرتاد المنية لم يجد
قالوا: الرّحيل ، فما شككت بأنها
الصبر أجمل غير أنّ تلذّذاً
أتظنني أجد السبيل إلى العزا
ردّ الحموح الصعب أسهل مطلباً
إني تأملت النوى ، فوجدتها
يقول القاضي : « فهو ، كما تراه ، يعرض عليك هذا الديباج الحسرواني ،
والوشى المنم ، حتى يقول :

لله درك أي معبّر قفرة لا يوحش ابن البيضة الإجفيل (١)
أو ما تراها ؟ لا تراها هزة تشأى العيون تعجرفاً وذميلاً (٢)
فنجّص عليك تلك الالذّة ، وأحدث في نشاطك فترة (٣) .

والقاضي الجرجاني يقف عند هذه الحدود ، لا يتجاوزها إلى بيان الأسرار ،
وتحليل الأسباب التي من أجلها استحسن ذوقه أو استهجن .

وهو مصيب فيما يهديه إليه ذوقه من القواعد ، ولكن لك أن تأخذ على هذا
الذوق أنه أحياناً لا يكون صائباً في حكمه على الشعر ؛ فقد رأيناه مثلاً يدعو
إلى الاسترسال مع الطبع ، ونبذ التكلف ، وهو محق فيما يدعو إليه ، ولكننا
رأيناه يمدح قطعة أبي تمام : « دعنى وشرب الهوى يا شارب الكاس . . . » (٤)
وهي مقطوعة غلبت فيها الصناعة ، حتى طمست المعنى ، وأزهقت
روحه ، فبدا تافهاً هزيباً . وخذ لذلك مثلاً شرب الهوى ، والشاعر بجاء به

(١) قال محققا الوساطة نقلاً عن التبريزي : خرج إلى صفة الناقة بغير ذريعة إلى الخروج ؛

يقول : لله درك أيتها الناقة أي معبر قفرة أنت ، أي تعبر عليك القفرة ، ولا يوحش هذا المعبر ابن
البيضة ، أي الظلم ، والإجفيل : الكثير الإجفال .

(٢) قال المحققان أيضاً : التعجرف : النشاط في السير . والذميل : نوع من السير ، وتشأى :

تسبق .

(٣) الوساطة ص ٢١ - ٢٢ .

(٤) راجع ص ٥٨ من هذا الكتاب .

ليتجانس مع شارب الكاس ، والهوى يغزو القلوب ويأسرها ، ولكن الناس لا يشربونه ، وزاد الشاعر الأمر كرباً عندما جعل نفسه تحسو الهوى كما يحسو شارب الخمر كأسه ، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبة في التجنيس المتكلف .

وقف في البيت الثاني عند استعجام سقمه ؛ لتبحث طويلاً عن معناه ، وربما أراد به عدم إدراك سببه ، وعند الشطر الثاني ، لتعرف أن المنزل هنا مصدر ميمي بمعنى النزول ، ومن للسببية ، وأن المعنى : السقم الذى حل به ولم يعرف صاحبه سببه إنما نزل به من أجل أحسن الناس ؛ فأى وقفة طويلة ، وأى معنى تافه .

وفي البيت الثالث طباق تلمتسه الشاعر في الشطرين ، ولكنك لا تدري معنى لقطع الألفاظ ، ووصل الألفاظ ، إلا أنها مثال للطباق والجناس .

والبيت الرابع معناه : متى أرجو إذا كان اليأس مستولياً على قطع الرجاء ، ويؤول المعنى إلى : متى أرجو إذا كنت يائساً ، وليس هو بمعنى ذى قيمة يستحق أن يكون شعراً ، وليس في البيت سوى هذا الطباق بين اليأس والرجاء . كما أنه عد من الشعر الجيد قول الشاعر :

والورد فيه كأنما أوراقه نزع ، ورد مكانهن حدود
فقد علق عليه بقوله : « لم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ، ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها » (١) .

ولست أدري من أين تأتى الهزة ، أو توجد الطربة ، ومجرد الشعور بانتزاع أوراق الورد يشير فى النفس الألم ، ويصور لها منظرًا حزيناً لا يخفف منه أن يوضع مكان الأوراق حدود .

وإذا كان التشبيه يراد به أن يركز مصباحاً يضيء فكرة الشاعر ، وينقل إحساسه إلى غيره من السامعين فإن تصور الخد مقتطعاً من الجسم وموضوعاً مكان أوراق الورد ، لا يؤدي به آلة التشبيه في تعميق الإحساس ، وتصوير الشعور ؛ لأن الناس لم يألفوا رؤية هذا المنظر .

ولذلك لا أوافق القاضي الجرجاني في استحسان قول علي بن الجهم :
عشية حيائي بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض^(١)
لأن الناس لا يرون في الطبيعة خدوداً يضاف بعضها إلى بعض .
ولكنه كان دقيق الملاحظة عندما أورد قول ابن المعتز :

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود
فإنه رأى أن الشاعر لو اتفق له أن يقول : حمرة في جوانبها بياض ، لكان قد طبق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل^(٢) .
ولكنه إذا كان لنا أن نعترض على ذوقه في بعض ما استحسنته أو استقبهه ، فإن النتائج التي وصل إليها صحيحة مسلم بها في أغلب الأحيان .

٤ - أسلوبه

طبق القاضي الجرجاني نظريته في الاسترسال مع الطبع على نثره ، فترك قلمه على سجيته ، مؤثراً الحرية في الصياغة الفنية ، لا يلتزم سجعاً ولا ازدواجاً ، إلا حيث يجيئان طبيعيين ، لا تكلف فيهما ، ولا إسراف .

وإذا كان في كتاب الوساطة شيء من السجع ، فإنك تلمس أنه لم يجيء مقتسراً في مكانه ؛ على أنه لم يلتزمه ، كقوله : « كم من فضيلة لو لم تسترها المحاسدة لم تبرح في الصدور كامنة ، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة لبقيت

(١) الوساطة ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

على حالها ساكنة ! لكنها برزت ، فتناولتها ألسن الحساد تجلوها ، وهي تظن
 أنها تمحوها ، وتشهرها ، وهي تحاول أن تسترها ؛ حتى عثر بها من يعرف
 فيها ، واهتدى إليها من هو أولى بها ، فظهرت على لسانه في أحسن معرض ،
 اكتست من فضله أزين ملبس ، فعادت بعد الحمل نابهة ، وبعد الذبول
 اضرة ، وتمكنت من بر والدها ، فنوّعت بذكره ، وقدرت على قضاء حق
 بهاحبها ، فرفعت من قدره : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خير لكم » (١) .
 ولكن القاضي لا يلبث أن يدع قلمه يسترسل كما يشاء ، وينسى السجع
 بغيره من ألوان الزخارف .

وقد احتفظ القاضي الجرجاني في ذلك بشخصيته ، فلم يتأثر في ذلك
 بالصاحب بن عباد الذي كان ولوعاً بالسجع إلى درجة سبق بها جميع من تقدمه
 من الكتاب (٢) ؛ ولا بغيره من الكتاب الذين التزموا السجع لا يخرجون عنه
 إلا قليلاً ، كبديع الزمان والحوارزمي ، ولا الذين يؤثرون الازدواج ، ويسجعون
 من حين إلى حين كابن العميد .

ولم يكن القاضي وحده في عصره هو الذي تحرّر من ربق السجع ،
 بل كان من المتحرّرين كذلك المرزباني صاحب الموشح ، والأصفهاني
 صاحب الأغاني (٣) .

وما بقي من كتاب « تهذيب التاريخ » يجري أيضاً على طريقة الاسترسال
 الذي لا يعرف السجع ، ولا يعنى بغيره من باقي المحسنات (٤) .
 وأريد أن أضيف إلى وصف خصائص أسلوبه أن العبارات القضائية تندس
 فيه هنا وهناك ؛ فتسمعه يقول : « عجّلت بالحكم قبل استيفاء الحجّة ، وأبرمت

(١) الوساطة ص ١ .

(٢) الصاحب بن عباد ص ١٣١ .

(٣) النثر الفنى ١ : ١١٣ .

(٤) راجع جزءاً من هذا الكتاب في فصل المختار من آثاره .

القضاء قبل امتحان الشهادة» ^(١) ، ويقول : « قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان ، وزدنا ، وبرأنا إليك مما يوجب عقد الكفالة ، وأفضلنا » ^(٢) ، ويقول « ومن أنصف حـجـزـه حضور البيـنة عن المنازعة » ^(٣) .

٥ - منهجه في كتاب الوساطة

وضع القاضي الجرجاني كتاب الوساطة رسالة واحدة ذات مقالة واحدة لا أبواب فيها ولا فصول ؛ بدأها بالحديث عن التفاضل ، وأنه داعية التنافس ، وهو سبب الحسد ، مع أن واجب العلماء والأدباء أن يتواصلوا ، ويحمي بعضهم عرض بعض ، وأن يعدلوا في أحكامهم (ص ١ - ٢) .

ثم ذكر موقف أهل الأدب من المتنبي ، وأنهم فئتان : واحدة تطنب في تقریظه ، وأخرى تجتهد في إظهار عيوبه ، وإخفاء محاسنه . مع أن لكل عالم هفوة ، ولكل شاعر سقطه . وهنا يورد عدداً من أغاليط الشعراء (ص ٣ - ١٤) . ويتحدث بعدئذ عن الشعر ، ولیم يتفاوت الشعراء في الجودة والإحسان . وأن الشعر يختلف باختلاف البيئة والطبائع ، وأن محاولة التكلف مفسدة للشعر . كما فعل أبو تمام (ص ١٤ - ٢٢) .

ويعصف المؤلف الأسلوب الممتاز عنده ، ويورد أمثلة لهذا الأسلوب من شعر البحري ، وشعر جرير . ويتحدث عما يرد في الأسلوب من ألوان البديع ، وكيف تكون الاستعارة حسنة حيناً وسيئة حيناً آخر (ص ٢٣ - ٤٧) .

ولكن القاضي الجرجاني لا يكثر من الحديث على المحسنات البديعية ، لأن المتنبي لم يكن من المغرمين بها ، وإنما كانت تجيء منه عفواً ، ولكنه

(١) الوساطة ص ٧٩ .

(٢) الوساطة ص ١٧٣ .

(٣) الوساطة ص ٤٣٣ .

ر من الحديث على الاستعارة ، لأن أبا الطيب نُسب إليه كثير من استعارات الرديئة ، وكانت الاستعارة شائعة في أشعاره .

وكل ذلك مقدمات يمهّد بها المؤلف لحديثه عن المتنبي وخصومه .
ويذكر أن خصومه رجلاّن : أحدهما لا يعترف بفضل المحدثين ؛
نهما يظلم المتنبي لأنه يعترف بفضل بعض المحدثين ، ولكنه ينكر فضل
الطيب ؛ وهنا يورد المؤلف بعض كبار الشعراء المحدثين ؛ ليبين نقائصهم
(ص ٤٨ - ٧٨) .

ويذكر ما عيب به شعر المتنبي ، ويأتى بأمثلة كثيرة من شعره المعيب
(ص ٧٩ - ٩٧) .

ويعقب على ذلك بإيراد أمثلة من شعره الجيّد ، ويورد من ذلك قدراً
كبيراً (ص ٩٧ - ١٧٤) .

ويعود إلى عيب السرقة . فيقف محدّداً لها ، مبيناً متى تكون ، ومتى لا يهتم
شاعر بها ، ويضرب أمثلة كثيرة من سرقات الشعراء ، ويذكر رأيه في
سرقة (ص ١٧٤ - ٢٠٨) .

ويورد ما نسب إلى أبي الطيب من السرقات ، معلقاً عليه أحياناً ، وصامتاً
أحياناً كأنه يقرّر السرقة بهذا الصمت (ص ٢٠٩ - ٤٢٥) .

ويعود المؤلف لاستكمال بعض المآخذ على أبي الطيب ، ويلتمس المعاذير له
(ص ٤٢٨ - ٤٤٦) .

ويأخذ بعدئذ في دراسة موضوعيّة ، يعرض فيها بعض الأبيات التي عيبت
على المتنبي ، ويدرسها بيتاً بيتاً ، ملتمساً العذر له في كثير مما وقع فيه
(ص ٤٤٦ - ٤٩٢) .

ويبدو من عرضنا لكتاب الوساطة أنه متماسك مرتبط الأجزاء ببعضها ببعض ،
وأنّ المقدمات التمهيدية التي تحدّث فيها عن تطور الشعر لها صلة وثيقة

بالمتنبي ؛ لأنها ترى أنه من الخطأ قياس المتنبي بالشعراء الأقدمين ، وإنما يقاس ، إذا توخينا العدالة ، بأمثاله من الشعراء المحدثين .

كما يبدو أن مؤلف الكتاب جعل دفاعه عن المتنبي ألواناً ثلاثة :
أولها : مبدأ المقاصّة ، أى وزن الحسنات بالسيئات لنرى أن جانب الحسنات أرجح .

وثانيها : أن أمثاله من عظماء الشعراء المحدثين لهم مثل أغلاطه ، فلم ينفرد دونهم بالحساب والمؤاخذة وإغفال أمر الجيد من شعره .

وثالثها : التماس الأعذار فيما أخطأ فيه إن كان له عذر .
كما يبدو أيضاً أن المؤلف أطال الوقوف عند ما أُخِذَ على أبي الطيب ، يبين عيوبه ، ويذكر ما قد يكون له من توجيه ، وإذا طبقنا رأى المؤلف في أن الشعر لا يكون مقبولا بالحاجة والمخاصمة ، أدركنا أن هذا الشعر الذى دافع عنه القاضى لا يمكن أن يرتفع إلى درجة الشعر الجيد .

ولم يقف المؤلف عند الشعر الجيد لأبي الطيب يبين أسباب روعته ، ونواحي الجمال فيه ، ولو أنه فعل لكان ذلك من أقوى وسائل الدفاع عن المتنبي ، وكان المجال واسعاً أمامه للموازنات بينه وبين غيره . وإنه حتى فى الموازنات القليلة التى عقدها بينه وبين غيره ، لم يقف طويلاً ؛ ليبين فضل أبي الطيب ، ومقدار سموه فى الناحية التى اتجه إليها ، ولكنه كان يلمس ذلك لمسات مسرعة .

٦ - شعره

كان القاضى الجرجاني يعدّ نفسه من أهل الأدب ^(١) ؛ فكان له رأيه فى علم من أعلام الشعر هو المتنبي ؛ ويعدّ نفسه شاعراً شرود الشعر ، يعجب الناس بشعره ، ويستعيرون منه ما راقهم :

ولكنّني أرمي بكلّ بدیعة یبتنّ بالباب الرّجال لواعبا
 تسیر ، ولم ترحل ؛ وتدنو ، وقد نأت وتكسب حُفّاظ الرّجال المراتبا
 ترى الناس : إماً مستهاماً بذكرها ولوعاً ، وإما مستعيراً وغاصباً (١)
 وكان مثله الأعلى فی الشعر أن یجمع بین أبی تمام والبحتری ، فیأخذ من
 الأوّل دقة المعنی ، ومن الثانی السّهولة والرّقة :

أحیت حبیباً والولید ، ففصّلاً منها وشائع (٢) نسجها تفصیلاً
 فأفادها الطائیّ دقة فكره والبحتریّ دماثة وقبولاً (٣)
 وبالشعر سجل رأیه فی الشعر الرائع القوی ؛ فرأیناه یقیسه بمقدار ما یترکه
 فی النفس من أثر ؛ وهو یدکرنا بمذهبه التّأثیری الذی سبق أن شرحناه ، فلیس
 الشعر إلا ما أثار عواطف الممدوح ، ووجد فیهِ المشتاق صدی لعواطفه
 ومشاعره ، ومسح علی قلب الغاضب ، فألانه وأرضاه ، وكما صرّح فی الوساطة
 برأیه فی الشعر الجتید ، وأنه الذی یسترسل فیهِ صاحبه مع الطبع ، لا یقتسر
 الأسلوب ، ولا یتكلف العبارات تكلفاً ؛ وندّد بصنف من الشعراء یجعلون
 همّهم اقتناص القوافی ، واتخاذها نبراساً یقودهم إلى النظم ، فیكون عملهم نظم
 أبيات لا یجمع بینها جامع ، ولا یربطها معنی ، وبصنف آخر یرضی بمیسور
 القول ، ویقنع بالضعیف . وترى ذلك إذ یقول :

وما الشعر إلا ما استفزّ مدّحاً وأطرب مشتاقاً ، وأرضی مغاضباً
 أطاع ؛ فلم توجد قوافیه نفراً ولم تأت الألفاظ حسری لواعباً (٤)
 وفی الناس أتباع القوافی : تراهم یبشّون فی آثارهنّ المقانبا (٥)
 إذا لحظوا حرف الرّویّ تبادروا وقد تركوا المعنی مع اللفظ جانبا

(١) یتیمۃ الدھر ٤ : ١٩ .

(٢) الوشائع : جمع وشیع ، وهو : علم الثوب .

(٣) یتیمۃ الدھر ٤ : ١٩ . ودمث : سهل . وحبیب والطائی : أبو تمام .

(٤) حسری : متعب . واللغب : الإعیاء الشدید .

(٥) یتیمۃ الدھر ٤ : ١٩ .

وإن مُنِعُوا حرَّ الكلام تطرّقوا حواشيه، فاجتاحوا الضعيف المقاربا^(١) ويرى الشعر الرقيق يفعل بالنفوس فعل الحمر، وإن لم تسكر : كفتنا حميًا الحمر رقة لفظها وأمتنا تهذيبها هفوة السكر وقد تنوعت أغراض الشعر عنده : بين غزل ، ومدح ، وشكوى ، وإخوانيات وحكمة. ويرقّ شعره عندما تتدفق عواطفه، ويكون هدفه الإفصاح عن وجدانه. وأغلب غزله مقطوعات يعبر بها عن إحساس بلون من ألوان الجمال ، وبرغم قصر هذه المقطوعات تدل على أنّ القاضى من المفتونين بالحسن ، المغرمين بالحدود الناضرة ، والعيون الساحرة ، والقدّ الأهيف ، والقبلة الممتعة ، وله فى الشوق إلى ديار الحبيب والحنين إلى أيام السعادة بلقىاه شعر يفيض حرارة وقوة . وهو يقسم بألوان الجمال عندما يريد أن يؤكد كلامه .

ويسيز في مدحه على النظام التقليدى يبدؤه بالغزل ، ويتخلّص منه إلى المدح ، وهو يجتهد فى حسن التخلّص ، بالربط الوثيق بين الغزل والمدح كقوله :

ولمّا تداعت للغروب شمسهم وقمنا لتوديع الفريق المغرب
تلقّين أطراف السجوف بمشرق لهنّ ، وأعطاف الحدود بمغرب^(٢)
فما سرن إلا بين دمع مضيع ولا قمن إلا بين قلب معذب
كأنّ فؤادى قرنُ قابوس راعه تلاعبه بالفيلق المتأشب^(٣)
ويمضى بعدئذ فى مدح قابوس بن وشمكير .

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٢) شرح هذا البيت الأستاذ عبد الخالق عمر (رحمه الله) فى معجم الأدباء ٤ : ٣٠ فقال : السجوف : الستائر . والمشرق : صفة لمخدوف ، أى دمع مشرق ، من أشرقه ، بمعنى أغصه . ومغرب صفة لمخدوف : أى قلب مبالغ فى الحزن . يريد أنهن عند الصعود ، وتلقى السجوف بكين ؛ فلما صرن فى أعطاف الحدود حزنّت قلوبهن ، فهى معذبة . والبيت بعده يوضح ما قلنا .
(٣) معجم الأدباء ٤ : ٣٠ والقرن : نظيرك فى الشجاعة . وراعه : أفزعه . والفيلق : الجيش العظيم . والمتأشب : المختلط . يصف فؤاده المضطرب إذ يشتد خفقانه بمنازل قابوس فى ميدان القتال عند ما يفزعه ما يراه من فعل قابوس فى الجيش الضخم المختلط ، فإن منازل يشتد خفقان قلبه .

وهو مغرم كثيراً بالتشبيه ، ينتقل به من الغزل إلى المدح .
وأكثر ما بقي لنا من مدائحه في الصّاحب بن عبّاد ، يمدحه حيناً ببلاغة
القول ، وجمعه بين المعاني المبتكرة ، والألفاظ المتألّفة ؛ وحيناً برفعة المكانة ،
وأنه يقسم على الورى أرزاقهم ، وحيناً يتحدث عن أفضاله وأياديه التي له في
رقاب الناس ، وآناً يثني على شجاعته وكرمه ، وآناً يصف عشق الوزير
للمجد ، وآناً آخر يثني على خلقه الرقيق . ومؤرخو الصّاحب يؤكدون له هذه
الصفات التي جعلت عهده كما قال القاضي طلقاً طيّب الظلال . كما واسى
القاضي الصّاحب في علته ، وهنأه بالشفاء من مرضه .

وقد أثنى الثعالبي على الشعر الذي أنشأه القاضي في الصّاحب ، وقال
عنه : « وسيّر فيه قصائد أخلصت على قصد (١) ، وفرائد (٢) أتت من فرد ،
وما منها إلا صوب العقل (٣) ، وذوب (٤) الفضل » .

وقلّ مدحه لغير الصّاحب ، فراه يثني على قابوس بن وشمكير بالشجاعة
والبلاغة ، وعلى بعض ممدوحيه الآخرين بسموّ الخلق ، والكرم ، وحب المجد ،
مما لا يخرج عن المدح الموروث .

وإذا كان القاضي في كتابه الوساطة لا يرضى عن الإفراط فإنه قد وقع
فيه في شعره أحياناً ، كقوله مادحاً :

أعدى الأنام طباعه ، فتكرّموا لو جاز أن يدعى سواه كريماً (٥)
وقوله في قصيدة أخرى مادحاً أيضاً :

ما زال في الناس أشباه وأمثلة حتى ظهرت ، فغاب الشكل والمثل (٦)

(١) أخلصت : دلت على الإخلاص . وعلى قصد : لم يغال فيها .

(٢) فرائد : جمع فريدة ، وهي التي ليس لها نظير .

(٣) الصوب : الانصباب ، وضد الخطأ .

(٤) الذوب : الخالص .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٨ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

والوصف الذى بقى لنا فى شعر القاضى الجرجاني يأتى فى أثناء شعر المدح ،
إلا حين يصف نفسه ، فإنه حينئذ ينشئ الشعر لذلك قصداً .

وقد وصف القاضى روضة جعلها مقدمة لقصيدة مدح ، وجعل وصف
الربيع وسيلة للمدح أيضاً ، كما وصف الحريف ، ووازن بينه وبين الممدوح ،
والشاعر معجب بالفصلين جميعاً ، فإذا كانت أمطار الربيع قد كست الأرض
وشياً مذهباً ، وابتسمت فيه الأشجار بعد عبوس وتمطيب ، وخلعت فيه الرياض
حدادها الذى كانت ترتديه فى أيام الشتاء ، وكأنما سقاها الغيث خمرأ فأخذت
أشجارها تمايل سكرأ كلما هبت الصبا - فإن الحريف خلاصة العام وأجل
ما فيه ، رقيق الهواء ، صافى الأفق ، عذب الأوقات ، ويستلذ الشاعر بأوقات
الحريف ، حتى ليخيّل إليه أنه لو استحال خمرأ ما كانت حراماً .

واتخذ القاضى الشعر وسيلة يصف بها نفسه ، وما يمر بها من آمال وآلام ،
ويبلغ قدراً كبيراً من الإجادة فى هذا اللون من الشعر ، وقد سبق أن أوردنا
بعضه ، ومنه ما كان فى الشكوى .

وكان إعجاب بعض مؤرخيه عميقاً ببعض هذا الشعر الذى وصف به
نفسه ، وبخاصة هذه القصيدة التى مطلعها : « يقولون لى : فيك انقباض . . »
يعلق عليها السبكي قائلاً : « لله درّ هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه ، وما أعلى على
هام الجوزاء موضعه ! وما أنفعه ، لو سمعه من سمعه ! وهكذا فليكن ، وإلا فلا ،
أدب كلّ فقيه ، ولثل هذا الناظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبيه ،
وعند هذا ينطق المنصف بعظيم الثناء على ذهنه الخالص لا بالتشويه » (١) .

ويعترف ابن خلكان به ، فيقول : إنه صاحب قصيدة : « يقولون لى :
فيك انقباض . . » ويعلق عليها بأنها أبيات طويلة مشهورة (٢) . وكان ابن خلكان

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .

فى القرن السابع الهجرى ، فقد ظلّ للقصيدۃ شهرتها منذ وفاة صاحبها فى القرن الرابع إلى أيام ابن خلكان .

أمّا الحكمة فر بما وجدتها فى ثنايا القصيدة كهذا البيت :

وليس الفتى من كان ينصف حاضراً أخاه ، ولكن مَن إذا غاب أنصفاً^(١)

وحيثما نراه قد وضعها فى آخر القصيدة ، كما فعل زهير بن أبى سلمى فى معلقته . وحكمه ، وإن كانت قليلة ، تتصل بموضوع القصيدة أوثق اتصال .

أما إخوانيَّاته فتتدفق فيها عواطفه ، وربما استعار قلمه بعض إخوانه . فنظم القاضى شعراً على لسانه ، كهذا الصديق الذى أرسل إليه بعض إخوانه هدية فيها أفراخ وبقلاء وباذنجان ، فقال على لسانه يذكر ذلك :

أبى سيّد السادات إلا تظرّفاً وإلا وصالاً دائماً ، وتعطفاً ويمضى فى وصف الهدية ، ويختم القصيدة بقوله :

فيالك من أكلٍ على ذكر من به تطيب لنا الدنيا ، تعطّف أم جفا
ولم أر قبل اليوم تحفة متّحيفٍ أسرّ وأبهى ، بل أجلّ وأشرفاً
علمنا به كيف التّظرف بعده ومَن عاشر الحرّ الظريف تظرفاً
تحسّ وأنت تقرأ شعر القاضى الجرجانى بشدة التلاؤم بين أبيات شعره ،
ووثاقة اتصال البيت بجاره .

وشعره يتراوح بين الطول والقصر ، وأطول ما بقى له قصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً .

وهو شعر متوسط الجودة ، سهل الطريقة ، ولذلك جعله الشعابى من أتباع البحترى^(٢) ، وربما لمحت فيه بعض معانى المتنبي ، كقوله :

تقسّمت العلياء جسمك كله فمن أين للأسقام فيه نصيب
فإنه يذكرنا بقول أبى الطيب يخاطب الحمى :

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

أبنت الدهر ، عندى كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
ومما يلحظ في شعره الباقي أن معظمه من بحر الطويل أو البحور الطويلة ،
مما يدل على أن منشئه هادئ في انفعاله ، وإن كنت ترى له وبخاصة في
الغزل ، الأبيات القصيرة الدالة على الانفعال السريع العنيف .

٧ - تأثيره وتأثيره

كان من الطبيعي لرجل كالقاضي الجرجاني يريد أن يكون من رجال
الأدب ، وأن يؤلف في النقد الأدبي - أن يتصل بالكتب التي ألفت قبله في
هذا الموضوع ، وأن يستفيد من التجارب التي وصل إليها من سبقه من الباحثين ؛
وكان من الطبيعي كذلك أن يظهر أثر دراسته في كتابه : الوساطة بين الشعراء .
فقد رأينا تأثيره بابن سلام الجمحي^(١) في إيمانه بأثر البيئة في الشعر ، بل
إنه يأتي بالمثل نفسه الذي أورده ابن سلام ، وهو عدى بن زيد ، فيرى صاحب
الوساطة شعره ، وهو جاهلي ، أسلس من شعر الفهرزدق ورجز رؤبة ؛ للملازمة
عدى الحاضرة ، وإيطانه الرّيف ، وبعده عن جلافة البدو ، وجفاء
الأعراب^(٢) . وقبل القاضي ضربه ابن سلام مثلاً لسهولة الشعر معللاً ذلك
بأنه كان يسكن مراكز الرّيف ، ويعيش في الحيرة في حيز النعمان بن
المنذر ؛ فثقل على لسانه عبارات نجد ، ولان لسانه ، وسهل منطقه^(٣) .
وتأثر به أيضاً في إيمانه بأن الشعر صناعة يعرفها أهل العلم كسائر
الصناعات ، يقول ابن سلام : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ،
كسائر أصناف العلم »^(٤) ، ويقول القاضي : « ولكل صناعة أهل يرجع

(١) توفي سنة ٢٣١ هـ .

(٢) الوساطة ص ١٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ١١٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٦ .

إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها»^(١) .

ورأى كما رأى ابن سلام من قبل أن ذوق العلماء بالشعر هو الفيصل في الحكم ، وإن كان غير مستطیع أن یبین السبب الذی دعا إلى هذا الحكم ، یقول ابن سلام : « یقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء : إنه لندی الصوت^(٢) والخلق ، طل الصوت^(٣) ، طویل النفس ، مصیب اللحن ، ویوصف الآخر بهذه الصفة ، وبنهما بون بعيد . یعرف ذاك العلماء عند المعاينة ، والاستماع له ، بلا صفة ینتهی إليها ، ولا علم یوقف علیه ، وإن كثرة المدارس لتعدی علی العلم به ، فكذلك الشعر یعرفه أهل العلم به »^(٤) .

وقد سبق أن بیّنا رأى القاضی فی إدراك الجمال ، وأن ما له إلى باطن تحصله الضمائر .

وإذا كان القاضی الجرجانی یسوی بین القديم والمحدث ، ولا ینظر إلى القديم بعین الإكبار لتقدمه فی الزمن ، ولا إلى المحدث بعین الزرّایة لتأخره فی الوجود ، بل یفاضل بینهم بمقدار ما منحوه من طبع ، وذكاء ، ورواية ، ودربة ، لا یفصل فی هذه القضية بین القديم والمحدث ، والجاهلی والمخضرم^(٥) ، والأعرابی والمولّد^(٦) . ولا یری من العدل استنقاص المتأخرین والاهج بعیبهم^(٧) — فمن قبله أعلن ابن قتیبة^(٨) هذا الرأی نفسه إذ قال : « ولم أقصد فیما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبیل من قلّد ، أو استحسن باستحسان غیره ،

(١) الوساطة ص ٩٧ .

(٢) ندى الصوت : بعيد ممدوده .

(٣) طل الصوت : حسنه ، عذبه ، ناعمه ، بهيج النغمة .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٧ . وتعدی : تعین .

(٥) المخضرم : الشاعر الذی أدرك الجاهلية والإسلام .

(٦) الوساطة ص ١٤ - ١٥ .

(٧) الوساطة ص ٤٩ .

(٨) توفي سنة ٢٧٦ هـ .

ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة ؛ لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار ؛ لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ، فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف ؛ لتقدم قائله ، ويضعه موضع متحيزه ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردى إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يفعه عندنا شرف صاحبه ، ولا تقدمه» (١) .

وقد وثق ابن قتيبة الموضوع حقه أكثر مما وفاه القاضى الجرجاني .
وقد قرأ القاضى كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى (٢) ؛ وهناك أشياء قد اتفق فيها الناقدان :

فمن ذلك تمجيد الناقلين للشعر المطبوع ، وإن اختلفت نظرتهم إلى المطبوع من الشعر ، فالآمدى يراه : «المستوى قليل السقط الذى لا يبين جيده من سائره بينونة شديدة» (٣) ، بمعنى ألا يرتفع ارتفاعاً شديداً فى بعض أجزاء القصيدة ، وينحدر انحداراً معيباً فى بعضها الآخر . وقد سبق أن بينا رأى القاضى فى الشعر المطبوع (٤) .

ونجد الناقلين يعترفان بتفاوت شعر أبى تمام (٥) ، وبأن فى شعره استعارات قبيحة (٦) .

(١) الشعر والشعراء ص ٢ .

(٢) توفى سنة ٣٧٠ هـ .

(٣) الموازنة ص ٢٢ .

(٤) راجع ص ٥٣ .

(٥) الموازنة ص ٢٢ ، والوساطة ص ٢١ .

(٦) الموازنة ص ١١٢ ، والوساطة ص ٣٩ .

ووجدنا الآمدى يتحدث عن السرقة ، فلا يجد سرقة فيما يشترك الناس فيه ،
وتجرى طباع الشعراء عليه ، وإنما السرق يكون في البديع الذى ليس للناس
فيه اشتراك ^(١) . وهذا هو رأى الذى وضحه القاضى الجرجاني ^(٢) .

ويتسامح الآمدى فى السرقة ، ولا يعدّها من كبير المساوئ إذ يقول :
« إن من أدركت من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعانى من كبير
مساوئ الشعراء ، وخاصة المتأخرين ؛ إذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدّم
ولا متأخر ^(٣) . وذلك هو رأى القاضى الجرجاني ^(٤) ، كما سبق أن ذكرنا .

ويتفقان أيضاً فى أن الذى يحكم على الشعر إنما هم أهل الخبرة والدّربة ،
وأنهم قد يدركون ألوان الجمال بأذواقهم ، ولا يستطيعون الإفصاح عن أسباب
حكمهم ، يقول الآمدى : « ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمين من كل
عيب ، موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما
أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدّربة الطويلة . . . وإذا قيل
له : من أين فضلت هذا الفرس على صاحبه لم يقدر على عبارة توضح الفرق
بينهما ، وإنما يعرفه بطبعه ، وكثرة دربته ، وطول ملابسته ، فكذلك الشعر :
قد يتقارب البيتان الجيدان النادران ؛ فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود
إن كان معناه واحداً ، أو أيهما أجود فى معناه ، إن كان معناه مختلفاً . . .
وحكى إسحق الموصلى قال : قال لى المعتصم : أخبرنى عن معرفة النغم ، وبيتها
لى ؛ فقلت : إنّ من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصّفة . . .
ولأنه ليس فى وسع كلّ أحد أن يجعلك أيها السائل فى العلم بصناعته كنفسه . . .
ولا أن يأتيك بعلّة قاطعة ، ولا حجة باهرة » ^(٥) .

(١) الموازنة ص ٢٣ .

(٢) الوساطة ص ١٨٠ .

(٣) الموازنة ص ١٣١ .

(٤) الوساطة ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) الموازنة ص ١٧٧ - ١٧٨ .

وفكرته كفكرة القاضي الجرجاني ، ولكن القاضي ضرب المثل بصورتين
مكان الفرسين^(١) .

* * *

وكان أثر القاضي كبيراً فيمن جاء بعده ، سواء في الدراسات النقدية ،
أو في الدراسات التي دارت حول المتنبي :

فأبنا أثره واضحاً في عبد القاهر الجرجاني عندما تحدث هذا عن السرقة
الأدبية ، فرأى أن المعنى إن كان مما اشترك الناس في معرفته ، وكان مستقراً
في العقول والعادات لا يكون الاشتراك فيه داخلاً في الأخذ والسرقة^(٢) .
وذلك ما سبق به القاضي الجرجاني^(٣) .

وبرغم أن القاضي الجرجاني كان يدين بتفضيل أبي تمام وتقديمه ، ويراه
قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع^(٤) — يراه متكلفاً ، متوعتر اللفظ ،
متغلغلاً في التصعب ، طالباً للبديع من كل وجه ، يجتلب المعاني الغامضة^(٥) .
وقد تأثر بهذا الرأي عبد القاهر الجرجاني ، فكان يجد في شعره أمثلة
للتعقيد^(٦) ، وللاستعارة والجناس الرديئين^(٧) ، ويقع في ضرب من التهورس^(٨) ،
ويجده فاسد الذوق^(٩) ، ويفضل الرجلان البحري على أبي تمام ، ولذلك قدم
عبد القاهر مختاراته للبحري على مختاراته لأبي تمام^(١٠) .
ومع ذلك يقف الناقدان معجبين بالشعر الرائع لأبي تمام^(١١) .

(١) الوساطة ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٩٤ .

(٣) راجع ص ٦٠ .

(٤) الوساطة ص ١٨ .

(٥) المرجع السابق نفسه . وراجع آراءه في أبي تمام في الوساطة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٦٢ .

٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ .

(٦) دلائل الإعجاز ص ٦٦ ، وأسرار البلاغة ص ١٢١ .

(٧) دلائل الإعجاز ص ٤٠٢ ، وأسرار البلاغة ص ٤ .

(٨) أسرار البلاغة ص ٥٩ . (٩) أسرار البلاغة ص ٢٢٠ .

(١٠) عبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ .

(١١) راجع الوساطة ص ٢٠ ، ٦٣ ، ودلائل الإعجاز ص ٨٢ ، ١٧٤ ، ٢٤١ ، وأسرار

البلاغة ص ١٠٠ ، ٣١١ .

وارتضى عبد القاهر الجرجاني ما عرّف به القاضي الاستعارة ، ومتى تكون قوّة رائعة ، فنقل في كتابه : دلائل الإعجاز^(١) تعريف القاضي للاستعارة ، وأنها ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلي ، ونقلت العبارة ، فجعلت في مكان غيرها^(٢) . وإن فسّر عبد القاهر النقل تفسيراً يبين عن نفس حسّاسة .

ونقل في كتابه : أسرار البلاغة^(٣) عن القاضي أساس الاستعارة القوية ، إذ جعل ملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه^(٤) . كما قبل عبد القاهر أيضاً رأى القاضي في الفرق بين التشبيه والاستعارة ، فإذا ذكر المشبه والمشبه به كان ذلك تشبيهاً ، أما إذا اقتصر على أحدهما فذلك هو الاستعارة^(٥) .

ورأى عبد القاهر نقد القاضي الجرجاني لبيت ابن المعتز :
بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الحجل الحدود
حين قال القاضي : « ولو اتفق له أن يقول : حمرة في جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الحجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الاحمرار في جوانب البياض »^(٦) — فنقله عبد القاهر في كتابه أسرار البلاغة^(٧) .

إلا أن عبد القاهر كان أدق من أستاذه ، لأنّ القاضي رأى أن ابن المعتز « راغ عن موقع التشبيه »^(٨) ؛ وأما عبد القاهر فيرى أن الشاعر « لعله وجد الأمر كذلك في الورد ؛ فشبه على طريق العكس ؛ فقال هذا البياض حوله الحمرة ، كالحمرة حولها البياض هناك والقصد إلى جنس من الورد مخصوص ، وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة »^(٩) .

(١) ص ٣٣٣ . (٢) الوساطة ص ٤٠ . (٣) ص ٣٤٦ . (٤) الوساطة ص ٤٠ .
(٥) أسرار البلاغة ص ٢٧٩ ، والوساطة ص ٤٠ . (٦) الوساطة ص ١٨٢ .
(٧) ص ١٧٢ . (٨) الوساطة ص ١٨٣ . (٩) أسرار البلاغة ص ١٧٢ - ١٧٣ .

فأنت ترى عبد القاهر يريد أن ينظر إلى المشبه من حيث هو في الواقع ،
ويصحح التشبيه على هذا الوضع ، وكأن القاضي يريد أن يطابق بين المشبه
والمشبه به ، وإن لم يكونا متطابقين في واقع الطبيعة .

وأطال القاضي الجرجاني في الحديث عن تعقيد الشعر ^(١) ، وربما يكون قد
أدرك أن المعنى الذي يفهم من البيت لا يفي بالتعب الذي يبذل في سبيل
الوصول إليه ^(٢) .

كما أطال عبد القاهر في الحديث عن التعقيد أيضاً ، ولكنه وازن بين
الكلام البليغ المتوقف على دقة الفكر ، وهو ممدوح لدى النقاد ، وهذا المعقد
المذموم . وانتهى إلى أن المعقد من الشعر والكلام لم يذم ؛ لأنه مما تقع حاجة فيه
إلى الفكر على الجملة . بل لأن صاحبه يجعل فكرك يتعثر في مضمونه ،
ويجعل طريقك إلى المعنى شائكاً ، ومذهبك نحوه وعراً ، بل ربما قسم فكرك ،
وشعب ظنك . حتى لا تدري من أين تتوصل ؟ وكيف تطلب ؟ ^(٣)

وإذا كان القاضي قد تحدث عن تفنن الشعراء في السرقة فإن ذلك فتح
الباب أمام عبد القاهر للموازنة بين الشعراء حين يقولون في معنى واحد ^(٣) ،
وفي هذا الفصل ينقل رأى القاضي من أن قول أبي نواس :

خليت والحسن تأخذه تنتقى منه ، وتنتخب

فاكتست منه طرائفه واستزادت فضله ما تهب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكماً عليهم تخير في الأبوة ما تشاء

أحدهما هو الآخر في المعنى ، وإن كان أحدهما يتخير الحسن ،
والآخر الأبوة . وأنهما من قول بشار :

خلقت على ما في غير مخير هوأى ، ولو خيـرت كنت المهذباً

(١) الوساطة ص ٩٦ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٧٤ .

ثم تناوله أبو تمام ، فأخفاه ، فقال :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع^(١)
وكان لرأيه في إنتاج الشعر أثره في النقد من بعده .

أما ابن رشيق^(٢) فقد رأى ما رآه القاضي الجرجاني من أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له . وقوة لكل واحد من أسبابه^(٣) ، وينقل ذلك عنه في كتابه العمدة^(٤) .

كما يقرر ابن الأثير^(٥) أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة . . . وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد ، والحديدة التي يقدح بها ؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً^(٦) .

ويشيد ابن خلدون^(٧) بأثر الدربة في الإنتاج الأدبي إذ يقول : « ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القرينة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته ، وترسخ^(٨) » .

* * *

أما أثره في الدراسات التي دارت حول المتنبي فتبدو في أولئك الذين خصوا المتنبي بالدراسة ، فمنهم من أخذ عنه ، ومنهم من رأى في الشاعر رأيه الذي بنى الوساطة عليه .

فمن هؤلاء الثعالبي^(٩) صاحب يتيمة الدهر ، فقد عقد في هذا الكتاب فصلاً درس فيه أبا الطيب وديوانه^(١٠) .

(١) الوساطة ص ١٩٩ ، ودلائل الإعجاز ص ٢٩٠ . (٢) توفي سنة ٤٦٣ هـ .
(٣) الوساطة ص ١٤ . (٤) ج ١ ص ٧٨ . (٥) توفي سنة ٦٢٧ هـ .
(٦) المثل السائر ص ٣ . (٧) توفي سنة ٨٠٨ هـ .
(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٦ . (٩) أبو منصور عبد الملك بن محمد توفي سنة ٤٢٩ هـ .
(١٠) يتيمة الدهر ج ١ من ص ٩٠ - ١٩٠ .

إن هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل الذى كان القاضى الجرجاني من زعماء ممثليه ؛ فإن الثعالبي يوازن بين مزايا الديوان ونقائصه ، كما فعل القاضى من قبل .

يقول الثعالبي : « وأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر وطرائقه . . . ، والتنبيه إلى عيونه وعيوبه »^(١) ؛ وهو بذلك ينهج نهج القاضى الجرجاني الذى يرى للمتنبى محاسنه وعيوبه .

وينقل عن صاحب الوساطة رأيه فى أن أبا الطيب عندما قال :

أقل ، أنل ، أقطع ، احمل ، علّ ، سلّ ، أعد
زد ، هشّ ، بشّ ، تفضّل ، أدن ، سرّ ، صِلِـ

قد نسج على منوال ديك الجنّ ، عندما قال :

أحلّ ، وامرر ، وضرّ ، وانفع ، ولن ، واخشن . ورشّ ، وبرّ ،
وانتدب للمعالى^(٢)

فلما جاء إلى سرقات المتنبي رأى أن يورد منها ما لم يورده القاضى فى كتابه ، وقد رأى الثعالبي أن القاضى فى هذا الباب « شفى وكفى ، وبالع فأوفى »^(٣) .

أما الأبواب الأخرى التى عقدها لبيان معاييب شعر المتنبي فإنه أحياناً ينقل عن القاضى رأيه فى هذا المعيب^(٤) ، ويذكر اسمه صراحة ، وأحياناً ينقل ، ولا يذكر الاسم .

وتأثر به من دارسى المتنبي كذلك أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى^(٥) ،

(١) يتيمة الدهر ١ : ٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٦ .

(٥) توفى سنة ٤٣٣ هـ .

فبرغم أن اتجاهه يخالف اتجاه القاضى تمام المخالفة ؛ لأنه هاجم المتنبي هجوماً عنيفاً ، ولم يرد إلا بيان ما فى شعر أبى الطيب من السرقة ، إذ يقول : « ولقد تأملت أشعاره كلها ؛ فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه ، من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم منسوخة » (١) ، برغم ذلك نجد تأثيره به واضحاً فى أنه لم يجعل الدين من مقاييس نقده للمتنبي ، فهو يعلن إنكاره لذلك فى صراحة ، ويقول : « وكيف يسوغ لى أن أثلبه لإلحاده . . . ، وأنا أتحقق أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والتمجار » (٢) ؛ وقد سبق أن أعلن القاضى أن الدين بمعزل عن الشعر (٣) .

وما هو جدير بالذكر هنا أن الثعالبي ، وإن كان يرى « أن الديانة ليست عياراً على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر » (٤) يرى أن « للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ، ونظماً ونثراً » (٥) .

ولكننى رأيت العميدى ينقل خطأ عن القاضى الجرجاني : « أن البحتري أحرق خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم ؛ لئلا تشتهر أشعارهم ، ولا تنشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم » (٦) ؛ فإن القاضى لم يرو الخبر على هذا الوجه ، بل قال : « إن البحتري أسقط خمسمائة شاعر فى عصره » (٧) ؛ ولست أدرى كيف وقع العميدى فى هذا الخطأ ؛ فهناك فرق شاسع بين الروايتين .

(١) الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٢٢ .

(٢) الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٢٤ .

(٣) الوساطة ص ٦٢ .

(٤) يتيمة الدهر ١ : ١٤٢ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٢٣ .

(٧) الوساطة ص ١٥٧ .

وينحالف العميدى القاضى الجرجانى فى نظرتة إلى ابن الرومى ، فبينا لا يراه القاضى الجرجانى شيئاً إذا قيس بالمتنبى ^(١) ، يفضلہ العميدى على أبى الطيب ، ويقول : « ولا أقيسه فى امتداد النفس ، وعلم اللغة ، والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصوّر المعانى العجيبة ، والتشبيهات الغريبة ، والحكم البارعة ، والآداب الواسعة ، بابن الرومى » ^(٢) .

أما يوسف البديعى ^(٣) فى كتابه : « الصبح المنبى ، عن حيشة المتنبى » فيختار طريقة صاحب الوساطة منهجاً له ، فيذكر معايب شعره ومقابحه ^(٤) ، ثم يورد « نبذة من محاسنه وروائعه ، وغرائبه ، وقلائده وفرائده التى زاد فيها على من تقدّم ، وسبق بها جميع من تأخر » ^(٥) .

وقد انتفع البديعى بكلّ ما قرأه من كتب السابقين عن المتنبى ، كيتمية الدهر للثعالبي ، والمثل السائر لابن الأثير ، والكشف عن سرقات المتنبى للعميدى ، والكشف عن مساوئ المتنبى لابن عباد ، والمنصف لابن وكيع ، وإلى جانب ذلك انتفع بجهود صاحب الوساطة فى دراسة للمتنبى .

* * *

٨ - منزلته

للقاضى الجرجانى مكانة عالية فى النقد الأدبى ، وإنه يستمدّ هذه المكانة من أمور كثيرة ، منها :

دعوته الحارة إلى العدالة فى النقد ، وعدم اتباع الهوى ، وهو بذلك يدعو إلى نقد مؤسس على الشعور الصادق ، لا على التقليد والتحامل .

(١) الوساطة ص ٨٢ .

(٢) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤ .

(٣) توفى سنة ١٠٧٣ هـ .

(٤) الصبح المنبى ص ١٨٠ .

(٥) الصبح المنبى ص ٢٣٧ .

ومن العدالة في النقد النظر إلى موضوع النقد من زواياه المختلفة ، حتى ينال ما يستحقه من الذمّ أو الثناء ؛ إذ من الظلم الحكم على الشيء بجانب منه ، دون إشراك باقي الجوانب ، وبهذه النظرة الشاملة تكون النتيجة أقرب ما تكون إلى الصواب .

ومن العدالة في النقد أيضاً الاحتباس في إصدار الأحكام ، حتى لا تلقى جزافاً ، فلا بدّ من الاستقراء الشامل ، ليكون الاستنتاج صحيحاً ، فإذا لم يتأتّ هذا الاستقراء فحذار من إلقاء الأحكام العامة ؛ لأنها حينئذ تكون خاطئة .

والقاضي الجرجاني يستمد هذه المبادئ من عمله قاضياً ينبغي له أن يتثبت من أسباب الحكم قبل إصداره .

وعندما أشاد القاضى بالطبع المهدّب الذى صقله الأدب : وشحذته الرواية ، دعا انتقاد إلى أن يأخذوا بنصيب كبير من الثقافة الأدبية ، متى كان الطبع لديهم ، حتى تهيأ لهم الأداة الصالحة للحكم الصواب . والواقع أنه من غير هذا الطبع المهدّب لا يمكن الحكم على النصوص الأدبية حكماً له قيمة نقدية .

ووضّح القاضى الأسس التى بها يتفاوت الشعراء فى الجودة ، ويوضع بعضهم فى طبقة أعلى من بعض ، يوم ذكر أن الشعر علم يشترك فيه الطبع ، والذكاء ، والرواية ، والدربة ؛ ولا يكاد الزّمن يضمّ إلى هذه الأسس جديداً إلا أن يضع مكان الرواية الثقافة التى يطالب بها الأدباء فى العصر الحديث ، ورواية النصوص الأدبية ودراستها بعض من هذه الثقافة .

وكان القاضى صريحاً عندما أعلن أن شعراء الجاهلية يخطئون ، وأن النحاة يركبون الصّعب لتأويل هذا الخطأ ، من غير أن يكون ثمة باعث سوى شدة إعظام المتقدم . وفى تلك النظرة المتحرّرة ، ما يجعل الناقد يصدر حكمه

كما يهـدى إليه عقله وذوقه المصقول ، لا يحول بينه وبين أن يقول ما يعتقده إيمان بقـداسة الأقدمين .

كما أنه من النقاد الذين رأوا جمال الشعر في أن يكون مطبوعاً لا تكلف فيه ، ولا اجتلاب لمحسن أو زينة ، وهو رأى تؤمن به الأذواق الصافية ، ويأخذ به عصرنا الحديث .

ولا يمنع القاضي أن تصاغ الآراء الفلسفية شعراً ، بل يرى المتنبي يتأتى له المعنى المبكر إذا خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ، كما في قوله :
إلف هذا الهواء أوقع في الأذ نفس أن الحمام مرّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق^(١)
وكأنه بذلك يسمح لجميع التجارب الإنسانية ، أن تصاغ في لغة الشعر .
وإذا كان قد عاب على أبي تمام أنه خاطب غلاماً غراً بلغة فلسفية^(٢) ،
فموضع العيب إنما هو في استخدام الأفكار الفلسفية في غير مكانها .
وقرر القاضي الجرجاني في صراحة الصلة بين الأدب وخلقة الأديب
فضلاً عن الصلة بين أدبه وطبعه وذكائه .

وهو ناقد موضوعي ، يحدّد موضوع النزاع ، ليناقشه ويخرج منه بنتيجة مقبولة .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الجهود التي بذلها في بيان ما للمتنبي من حسنات وسيئات ، وما ضربه من الأمثلة لجيد شعره ورديئه ، وما قام به من دراسات لشعراء ساقه إليها دراسته للمتنبي أدركنا قيمة الرجل بين نقاد العرب .
وإذا أضفنا أيضاً عمق نظرتة ، ومقدرته على التحليل ، والتعليل وتبيين ما في الشعر من مظاهر الانحراف ، وتوضيح ذلك وتصويره ، فهما قيمة في النقد الأدبي .

(١) الوساطة ص ١٧٧ .

(٢) راجع رأيه في شعر أبي تمام في فصل « منتخبات من آثاره » .

ولكننا نأخذ عليه أنه لم يحدّد في وضوح مكان أبي الطيب بين الشعراء ،
وعندما « قسم شعره فجعله في الصدر الأوّل تابعاً لأبي تمام ، وفيما بعده واسطة
بينه وبين مسلم » ^(١) وعندما جعلك « لا تدعى لأبي الطيب طريقة بشار
وأبي نواس . . . ولو ادعيتّه فإنما كنت تخادع نفسك ، أو تباهت عقلك ،
وإنما أنت أحد رجلين : إما أن تدعى له الصنعة المحضّة ، فتلحقه بأبي تمام ،
وتجعله من حزبه ، أو تدعى له فيه شركاً ، وفي الطبع حظاً ، فإن ملت به
نحو الصنعة فضل ميل صيّرته في جنبه مسلم ، وإن وفرت قسطه من الطبع
عدلت به قليلاً نحو البحترى » ^(٢) . — عندما قال ذلك لم يزدنا علماً بإمكان
أبي الطيب ، ولكنه شكّكنا في موضعه الحقيقي ، أين يكون .

(١) الوساطة ص ٤٩ .

(٢) الوساطة ص ٤٨ .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار الفاضل الجرجاني

(١) الناقد

العدالة في النقد

« يجب أن يتبع الناقد الحق ، وألا يميل مع الهوى ؛ ليثق الناس به فيما يقول » .

« وكما ليس من شرط صِلَة رَحِيمِكَ أن تحيف لها عن الحق ، أو تميل في نصرها عن القَصْد ، فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تتعَدَّلَ لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج في بابه إلى الإسراف ؛ بل تتصرف على حكم العدل كيف صَرَفَكَ ، وتقف على رُسْمِهِ كيف وَقَفَكَ ، فتنتصف تارة ، وتعتذر أخرى ، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهداً لك إذا أنكرت ، وتقيم الاستسلام للحجة — إذا قامت — محتجاً عنك إذا خالفت ؛ فإنه لا حال أشدَّ استعطافاً للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة ، من توقُّفك عند الشبهة إذا عرضت ، واسترسالك للحجة إذا قهرت ، والحكم على نفسك إذا تحققت الدعوى عليها ، وتنبيه خصمك على مكان حيلك إذا ذهب عنها ؛ وبني عُرِفْتَ بذلك صار قولك برهاناً مسلماً ، ورأيك دليلاً قاطعاً ، واتهم خصمك ما علمه وتيقنه ، وشك فيما حفظه وأتقنه ، وارتاب بشهوده وإن عدّ لهم المحبة ، وجبَّ عن إظهار حججه وإن لم تكن فيها غميرة ، وتحامتك الخواطر فلم تقدم عليك إلا بعد الثقة ، وهابتك الألسن فلم تعرض لك إلا في الفرط والندرة » (١) .

(١) الوساطة ص ٢ . والفرط : الحين . والغميرة : المطعن والضعف . واسترسل : استأنس .

وانتصف منه : أخذ حقه منه ، أو انتقم منه .

الشعر

بين القدماء والمحدثين

« يتفاضل الشعراء قديماً وحديثاً بمقدار حظوظهم من الطبع والذكاء والرواية والدربة ، وحاجة المحدث إلى الرواية أشد ، ليحيط بألفاظ العرب » .

« إنَّ الشَّعْرَ علمٌ ^(١) من علوم العرب ، يشترك فيه الطَّبْعُ ، والرواية ، والذكاء ، ثُمَّ تكون الدَّربَةُ مادَّةً له ، وقوَّةً لكلِّ واحدٍ من أسبابه ؛ فمن اجتمعت له هذه الحِصَالُ فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ، ولست أفصل في هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلي والمخضرم ^(٢) ، والأعرابي والمولَّد ؛ إلَّا أنِّي أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمسَّ ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلَّا رواية ، ولا طريق للرواية إلَّا السمع ؛ وملاك الرواية الحفظ ؛ وقد كانت العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض ؛ كما قيل : إنَّ زهيراً كان راوية أوس ، وإنَّ الحُطَيْيئة راوية زهير ، وإنَّ أبا ذؤيب راوية ساعدة ابن جويرية ؛ فبلغ هؤلاء في الشعر حيث تراهم . وكان عبيد راوية الأعشى ، ولم تُسمَعْ له كلمة تامة ، كما لم يسمع لحسين راوية جرير ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، والسائب راوية كثير ؛ غير أنها كانت بالطبع أشدَّ ثقة ، وإليه أكثر استئناساً .

وأنت تعلم أنَّ العرب مشتركةٌ في اللغة واللسان ، وأنها سواء في المنطق والعبارة ؛ وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة . ثُمَّ قد تجد الرجل

(١) لم يكن المؤلفون يومئذ يفرقون بين العلم والفن .

(٢) المخضرم : من أدرك الجاهلية والإسلام .

منها شاعراً مفلحاً ، وابن عمه وجار جنباه ولصيق طنبه بكيئاً مفحماً^(١) ؛ وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر ، والخطيب أبلغ من الخطيب ، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء ، وحدة القريحة والفطنة .
وهذه أمور عامة في جنس البشر ، لا تخصيص لها بالأعصار ، ولا يتصف بها دهر دون دهر^(٢) .

تطور الشعر وأثر التكلف

« اتجه الشعر بعد الإسلام إلى الرقة ، وصار هؤلاء الذين يرومون الاقتداء بالأقدمين متكلفين ، قلت الخلاوة في شعرهم ، وذهب رونق كلامهم » .

« لما ضرب الإسلام بحجرانه^(٣) ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الخواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ، اختار الناس من الكلام ألينّه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذى أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً ، وألطفها من القلب موقعاً ، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها ؛ كما رأيتهم يختصرون [ألفاظ]^(٤) الطويل ؛ فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة ، أكثرها . بشـيع شـيـع ، كالقشـنـط ، والعنـطـنـط ، والعشـنـق ، والجـسـرـب ، والشـوقـب ، والسـلـهـب ، والشـوـذـب ، والطـاط ، والطـوط ، والقاق ، والقوق ؛ فبنذوا جميع ذلك وتركوه ، واكتفوا بالطويل لحفته على اللسان ، وقلة نبو السمع عنه ، وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل ؛ حتى تسمّحوا ببعض اللحن ، وحتى خالتطهم الركافة والعجمة ؛ وأعانهم

(١) الطنب : حبل طويل تشد به الخيمة . والبكىء : قليل الكلام . والمفحم : من لا يستطيع أن يقول الشعر .

(٢) الوساطة ص ١٤ - ١٥ .

(٣) أى استوطن الإسلام البلاد . وأصل الجران : مقدم عنق البعير .

(٤) زيادة من الناشرين لكتاب الوساطة .

على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق ، فانتقلت العادة ، وتغيرت
الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترققوا ما أمكن ،
وكسوا معانيهم ألطف ما سنع من الألفاظ ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام
الأول يتبين فيها اللين ، فيظنّ ضعفاً ؛ فإذا فرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقاً ،
وصارماً تخيلته ضعفاً ، رشاقة ولطفاً : فإن رام أحدهم الإغراب ، والاقتداء
بمن مضى من القدماء ، لم يتمكن من بعض ما يرومه إلاّ بأشدّ تكلف ،
وأتمّ تصنع ، ومع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة
الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة» (١) .

التّحامل في نقد المحدثين

« يجد القاضي باب العذر مهدداً أمام المحدثين من الشعراء ،
ويذكر بعض ما يواجهون به من النقد المسرف » .

« ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحقّ بالاستكثار ، وصغيرهم
أولى بالإكبار ، لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله ، وحذف
أكثره ، وقلّ عدده ، وحظير معظمه ؛ ومعان قد أخذ عفوها ، وسبق إلى
جيدها ، فأفكاره تنبث في كلّ وجه ، وخواطره تستفتح كلّ باب ؛ فإن وافق
بعض ما قيل ، أو اجتاز منه بأبعد طرف ، قيل : اسرق بيت فلان ، وأغار على
قول فلان ، ولعلّ ذلك البيت لم يقرع قطّ سمعه ، ولا مرّ بخلده ، كأنّ
التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن ؛ وإن افترع معنى بكراً ،
أو افتتح طريقاً مبهماً ، لم يرض منه إلاّ بأعذب لفظ وأقربه إلى القلب وألذّه
في السمع ، فإن دعاه حبّ الإغراب وشهوة التنوّق (٢) إلى تزيين شعره ،

(١) الوساطة ص ١٧ .

(٢) تنوّق في أموره : تجود وبالغ فيها .

وتحسين كلامه ، فوشّحه بشيء من البديع ، وحلّاه ببعض الاستعارة قيل :
 هذا ظاهر التكلّف ، بين التعسّف ، ناشف الماء ، قليل الرّونق ؛ وإن قال
 ما سمحت به النفس ، ورضى به الهاجس ، قيل : لفظ فارغ ، وكلام
 غسيل ؛ فإحسانه يتأوّل ، وعيوبه تتمحلّ ، وزلّته تتضاعف ، وعذره يكذب» (١)

الذّوق والنقد

« يؤمن القاضي الجرجاني أن النقد الأدبي يعتمد على
 الذوق المرفه الذي لا يستطيع أحياناً أن يعلل لأحكامه » .

« أعدل إلى ذكر ما رأيتك تنكر من معانيه وألفاظه ، وتعييب من مذاهبه
 وأغراضه ، وتحيل في ذلك الإنكار على حجة أو شبهة ، وتعتمد فيما تعينه
 على بيّنة أو تهمة ، إذ كان ما قدّمت حكايته عنك ، وما عددته من مطاعنك ،
 وأثبتته من الأبيات التي استسقطتها ، وملت على هذا الرّجل لأجلها من باب
 ما يمتحن بالطبع لا بالفكر ، ومن القسم الذي لاحظ فيه للمحاجة ، ولا
 طريق له ، إلى المحاكمة ، وإنما أقصى ما عند عائبه ، وأكثر ما يمكن معارضه
 أن يقول : فيه جهامة سلبته القبول ، وكرازة نفّرت عنه النفوس ، وهو خال
 من بهاء الرّونق ، وحلاوة المنظر ، وعذوبة المسمّع ، ودماثة النثر ، ورشاقة
 المعرض ، قد حمل التعسّف على ديباجته ، واحتكم التعمّل في طلاوته ،
 وخالف التكلّف بين أطرافه ، وظهرت فجاجة التصنّع في أعطافه ، واستهلك
 التعقيد معناه ، وقيد التعويض مراده » .

وهذا أمر تستخبر به النفوس المهدبة ، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة ،
 وإنما الكلام أصوات محلّها من الأسماع محلّ النواظر من الأبصار . وأنت قد
 ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي أوصاف الكمال ، وتذهب في

الأنفس كلَّ مذهب، وتقف من التمام بكلَّ طريق؛ ثمَّ تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتتام الحلقة، وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسام؛ وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفوس، وأسرع ممازجة للقلب، ثمَّ لا تعلم - وإن قايست واعتبرت، ونظرت وفكرت - لهذه المزية سببًا، ولما خُصَّت به مُقتضيًا.

ولو قيل لك: كيف صارت هذه الصّورة، وهي مقصورة عن الأولى في الإحكام والصنعة، وفي الترتيب والصيغة، وفيما يجمع أوصاف الكمال، وينتظم أسباب الاختيار أحلى وأرشد، وأحظى وأوقع؟ لأقمت السائل مقام المتعنت المتجائف، ورددته ردَّ المستبهم الجاهل! ولكان أقصى ما في وسعك، وغاية ما عندك أن تقول: موقعه في القلب الطّيف، وهو بالطّبع أليق؛ ولم تعد مع هذه الحال معارضًا يقول لك: فما عبت من هذه الأخرى؟ وأى وجه عدل بك عنها؟ ألم يجتمع لها كيت وكيت؟ وتتكامل فيها ذية وذية؟ وهل للطاعن إليها طريق؟ وهل فيها لغامر مغمر؟ يحاجك بظاهر تحسّته النّواظر، وأنت تحيله على باطن تحصّله الضّمائر.

كذلك الكلام: منشوره ومنظومه، ومُجَمَّلُه ومفصَّلُه: تجد منه المحكم الوثيق، والجَزَلُ القوي، والمصنّع المحكم، والمنمّق الموشح، قد هذب كل التهذيب، وتثقف غاية التثقيف، وجهّد فيه الفكر، وأتعب لأجله الحاطر، حتى احتفى ببراءته عن المعاييب، واحتجز بصحته عن المطاعن، ثمَّ تجد لفؤادك عنه نبوة، وترى بينه وبين ضميرك فجوة؛ فإن خلص إليهما فبأن يُسهّل بعض الوسائل إذنه، ويمهّد عندهما حاله، فأما بنفسه وجوهره، وبمكانه وموقعه، فلا.

هذا قولي فيما صفا وخلّص، وهذّب ونقّح؛ فلم يوجد في معناه خلل، ولا في لفظه دخل، فأما المختلّ المعيب، والفاسد المضطرب فله وجهان: أحدهما ظاهر يُشْتَرَك في معرفته، ويقلّ التفاضل في علمه؛ وهو ما كان

اختلاله وفساده من باب اللّحن والخطأ من ناحية الإعراب واللغة؛ وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قبيل الوزن والذوق؛ فإنّ العامى قد يميّز بذوقه الأعاريض والأضرب، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبجر، ويظهر له الانكسار البين والزحاف السائغ. والآخر غامض يوصل إلى بعضه بالرواية، ويوقف على بعض بالدراية، ويحتاج فى كثير منه إلى دقة الفطنة، وصفاء القريحة، ولطف الفكر، وبعد الغوص.

وميلاك ذلك كله، وتمامه الجامع له، والزّمام عليه صحة الطبع، وإدمان الرياضة؛ فإنهما أمران ما اجتماعا فى شخص فقصرًا فى إيصال صاحبهما عن غايته، ورضيا له بدون نهايته.

وأقلّ الناس حظًا فى هذه الصّناعة من اقتصر فى اختياره وثفيه، وفى استجادته واستسقاطه، على سلامة الوزن، وإقامة الإعراب، وأداء اللغة؛ ثمّ كان همّه وبغيته أن يجد لفظًا مروقًا، وكلامًا مزوقًا، قد حشى تجنيسًا وترصيعًا، وشحن مطابقة وبديعًا، أو معنى غامضًا قد تعمق فيه مستخرجه، وتغلغل إليه مستنبطه، ثمّ لا يعبأ باختلاف الترتيب، واضطراب النظم، وسوء التأليف، وهلهلة النسج، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها، ولا يسبر ما بينهما من نسب، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب، ولا يرى اللفظ إلاّ ما أدّى إليه المعنى، ولا الكلام إلاّ ما صور له الغرض، ولا الحسن إلاّ ما أفاده البديع، ولا الرّونق إلاّ ما كساه التصنيع، وقد حملنى حبّ الإفصاح عن هذا المعنى على تكرير القول فيه، وإعادة الذّكر له؛ ولو احتمل مقدار هذه الرّسالة استقصاؤه، واتسع حجمها للاستيفاء له لاسترسلت فيه، ولأشرفتُ بك على معظمه»^(١).

الاستعارة

« يقدر القاضى الجرجاني الاستعارة، ويرى منها المستحسن والمستقبح ، ويرى أن تقديرها يرجع إلى الذوق ، وربما استطاع الناقد أن يكشف عن سبب استحسانه أو استقباحه » .

« الاستعارة أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول في التوسع والتصرف ، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ ، وتحسين النظم والنثر » .

« وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها قريب من الاقتصاد ، حتى استرسل فيه أبو تمام ، ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التعدى ، وتبعه أكثر المحدثين بعده ، فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة والتقصير والإصابة . وأكثر هذا الصنف من الباب الذى قدمت لك القول فيه ، وأقمت لك الشواهد عليه ، وأعلمتك أنه يُمَيِّزُ بقبول النفس ونفورها ، وَيُنْتَقَدُ بسكون القلب ونبوّه ، وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه ، واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه » (١) .

(ب) الشاعر

١ - حب الجمال

« القاضى الجرجاني من المولعين بالجمال ، وهو فى شعره يبين عن إعجابه به وشوقه إليه » .

ساق جميل

« يشاق الشاعر إلى لثم الوجنة الموردة » :

أَفْدَى الَّذِي قَالَ ، وَفِي كَفِهِ مِثْلُ الَّذِي أَشْرَبُ مِنْ فِيهِ
الْوَرْدُ قَدْ أَيْنَعَ فِي وَجْنَتِي قُلْتُ : فَمِي بِاللَّثَمِ يَجْنِيهِ (٢)

(١) الوساطة ص ٤٤٢ .

(٢) النص من معجم الأدباء ١٤ : ١٦ . أينع : احمر . وأينع الثمر : أدرك وطاب وحن

حبيب فاتن

« مورد الخد ، أهيف القد ، فاتر الحفن » :

انثُرْ عَلَى خَدَّيْ مِنْ وَرْدِكَ أَوْ دَعْ فَمِي يَقْطِفُهُ مِنْ خَدِّكَ
إِرْحَمْ قَضِيبَ الْبَانِ ، وَارْفُقْ بِهِ قَدْ خِفْتُ أَنْ يَنْقُدَ مِنْ قَدِّكَ (١)
وَقُلْ لِعَيْنَيْكَ - بِنَفْسِي هُمَا يُخَفِّفَانِ السُّقْمَ عَنْ عَبْدِكَ (٢)

جميل وراء الستار

« يختلس إليه النظر ، فلما لم يره تخيل صورته » :

سَقَى الْغَيْثُ ، أَوْ دَمَعِي - وَقَلَّ كِلَاهُمَا لَهَا أَرْبُعًا ، جَوْرُ الْهَوَى بَيْنَهَا عَدْلُ
وَفِي ذَلِكَ الْخِذْرِ الْمُكَلَّلِ ظَبْيَةٌ لِكُلِّ فُؤَادٍ عِنْدَ أَجْفَانِهَا ذَخْلُ (٣)
إِذَا خَطَرَاتُ الرِّيحِ بَيْنَ سُجُوفِهَا أَبَاحَتْ لِطَرْفِ الْعَيْنِ مَا حَظَرَ الْبُخْلُ
تَلَقَّتْ بِأَثْنَاءِ النَّصِيفِ لِحَاطِنَا وَقَالَتْ لِأُخْرَى : مَا الْمُسْتَهْتِرِ عَقْلُ
أَفَى مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَمْرُحُ طَرْفُهُ وَأَعْدَاؤُنَا حَوْلُ ، وَحُسَادُنَا قُبْلُ (٤)
وَمَدَّتْ لِإِسْبَالِ السُّجُوفِ بَنَانَهَا فَغَازَلْنَا عَنْهَا الشَّمَائِلُ وَالشَّكْلُ (٥)

(١) ينقد : ينشق .

(٢) النص من معجم الأدباء ١٤ : ٢٥ .

(٣) الذحل : الثأر .

(٤) الحول : من الحول ، وهو إقبال الحديقة على الأنف . والقبل : إقبال السواد على الأنف .

يريد أنهم يراقبوننا في اختلاس .

(٥) النص من معجم الأدباء ١٤ : ٣٤ ، ٣٥ .

أحب لأجله اسمه وسميه وأعدائي

أَحِبُّ اسْمَهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَسَمِيَّهِ وَيَتَّبِعُهُ فِي كُلِّ أَخْلَاقِهِ قَلْبِي
وَيَجْتَازُ بِالْقَوْمِ الْعِدَا ، فَأُحِبُّهُمْ وَكُلُّهُمْ طَاوِي الضَّمِيرِ عَلَى حَرْبِي ^(١)

جفن "عليل"

« إن ألوان الغرام تنبعث من عينه وفه » :

قُلْ لِلْسَّقَامِ الَّذِي بِنَاضِرِهِ دَعُهُ ، وَأَشْرِكْ حَشَايَ فِي سَقَمِهِ
كُلُّ غَرَامٍ تُخَافُ فِتْنَتَهُ فَبَيْنَ الْحَاضِرِ وَمُبْتَسِمِهِ ^(٢)

ألم الحبيب فصد

« يتمنى الشاعر أن يتحمل آلامه ، وأن يفدى دمه بدماء عينيه » :

يَا لَيْتَ عَيْنِي تَحَمَّلَتْ أَلَمَكَ بَلْ لَيْتَ نَفْسِي تَقَسَّمَتْ سَقَمَكَ
وَلَيْتَ كَفَّ الطَّبِيبُ ، إِذْ فَصَدَتْ عِرْقَكَ أَجْرَتْ مِنْ نَاضِرِي دَهَكَ
أَعْرَتُهُ صَبَغَ وَجْنَتَيْكَ ، كَمَا تُعِيرُهُ ، إِنْ لُثِمْتَ ، مَنْ لَشَمَكَ ^(٣)

شكوى من الحمال

« يشكو من عيني الحبيب ما تجلبانه من الموت ، ويعجب من ورد خديه ، ويتمنى أن لو قبلهما » :

مَنْ ذَا الْغَزَالُ الْفَاتِنُ الطَّرْفِ الْكَامِلُ الْبَهْجَةِ وَالظَّرْفِ

(١) النص من معجم الأدباء ١٤ : ١٨ . وطاوى الضمير : عاقد النية .

(٢) النص من يتيمة الدهر ٤ : ٩ .

(٣) النص من المرجع السابق ص ١٠ .

مَا بَالُ عَيْنَيْهِ وَالْحَظِّهِ دَائِبَةً تَعْمَلُ فِي حَتْفِي (١)
 وَاهَا لِذَاكَ الْمَوْرَدِ فِي خَدِّهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعَ الْقَطْفِ
 أَشْكُو إِلَى قَلْبِكَ يَا سَيِّدِي مَا يَشْتَكِي قَلْبِي مِنْ طَرْفِي (٢)

أجمل من الهلال

« إذا كان في الهلال جمال الحبيب وبهاؤه ، فليس له جمال قده » :

هَذَا الْهِلَالُ شَبِيهُهُ فِي حُسْنِهِ وَبِهَائِهِ . كَلَّا ، وَفَتْرَةَ جَفْنِهِ
 هَبْكَ ادَّعَيْتَ بِهِاءَهُ كَيْفَ احْتِيَالُكَ فِي تَأْوُدِ غُصْنِهِ
 لَوْ لَاحَظْتَكَ جُفُونُهُ بِفُتُورِهَا أَقْسَمْتُ أَنَّكَ مَا رَأَيْتَ كَحُسْنِهِ (٣)

قبلة تختلصة

« يقسم الشاعر بالجمال أن الحد ود ما خلقت إلا للتقيل ، ولكنه لا يظفر إلا بقبلة مسروقة » :

وَعُجْجَ عَيْنَيْكَ وَمَا أَوْدَعَتْ أَجْفَانُهُمَا قَلْبَ شَجٍ وَامِقٍ (٤)
 مَا خَلَقَ الرَّحْمَنُ تَفْأَحَتِي خَدَّيْكَ إِلَّا لِفَمِ الْعَاشِقِ
 لَكِنِّي أُمْنَعُ مِنْهَا ، فَمَا حَظِّي إِلَّا خُلُوسَةُ السَّارِقِ (٥)

(١) الحتف : الموت .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٠ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٠ .

(٤) الشجى : الحزين المشغول بالبال . والوامق المحب .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١١ . والخلصة : ما يخلص .

عينان منهما السعادة والشقاء

« يصف جمال غلامه : أبي القاسم » :

يا قُبْلَةً نِلْتُهَا عَلَى دَهْرٍ مِنْ ذِي دَلَالٍ مُهْفَهَفٍ غَنْجٍ ^(١)
 قَدْ حَيَّرَ الْخِشْفَ غُنْجٌ مُقْلَتِيهِ ^(٢) وَالْوَرْدَ تَوْرِيدُ خَدِّهِ الضَّرَجِ ^(٣)
 إِذَا تَشَنَّى أَوْ قَامَ مُعْتَدِلًا ^(٤) قَانَ لَهُ الْغُصْنُ : أَنْتَ فِي حَرَجٍ ^(٥)
 قَدْ قَسَمَ الْحُسْنُ مُقْلَتِيكَ أَبَا ^(٦) قَمَاسِمٍ بَيْنَ الْفُتُورِ وَالْدَّعَجِ ^(٧)
 قُلْ لَهُمَا يَرْفُقَا بِقَلْبِ فَتَى ^(٨) طَوَيْتَ أَحْشَاءَهُ عَلَى وَهَجٍ ^(٩)
 فَمِنْهُمَا - لَا عَدِمْتُ ظُلْمَهُمَا - ^(١٠) سَقَمُ فُؤَادِي ، وَمِنْهُمَا فَرَجِي ^(١١)

٢ - شوق إلى بغداد

« كان لبغداد أثر عميق في نفس القاضي الجرجاني ، ونورد هنا بعض ما قاله في الحنين إلى بغداد »

يغفر ذنوب الأيام

سَقَى جَانِبِي بَغْدَادَ أَخْلَافَ مُزْنَةٍ تُحَاكِي دُمُوعِي صَوْبَهَا وَانْحِدَارَهَا
 فَلِي فِيهِمَا قَلْبٌ شَجَانِي اشْتِيَاقُهُ وَمُهْجَةٌ نَفْسٍ مَا أَمَلْتُ ادِّكَارَهَا
 سَأَغْفِرُ لِلْأَيَّامِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَعْنُ قَرَّبَتِ بَعْدَ الْبَعَادِ مَزَارَهَا ^(٧)

(١) المهفهف : الضامر البطن الدقيق الحصر . والغنج : ذو الدلال .

(٢) الخشف : ولد الظبي أول ما يولد . والضرج : الأحمر .

(٣) الحرج : الضيق .

(٤) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها .

(٥) الوهج : الاتقاد .

(٦) يتيمة الدهر ٤ : ١٠ .

(٧) يتيمة الدهر ٤ : ١٢ .

حنين إلى معاهد الصّحب

« يتمنى رجوع أيامه في بغداد ، ويتذكر ديار أحبابه ، ويتخيل مقامه فيها ويصف موضعه » :

أَرَا جِعَةً تِلْكَ اللَّيَالِي كَعَهْدِهَا
وَصُحْبَةً أَقْوَامٍ لَبِستُ لِفَقْدِهِمْ
إِذَا لَاحَ لِي مِنْ نَحْوِ بَغْدَادَ بَارِقُ
سَقَى جَانِبِي بَغْدَادَ كُلُّ غَمَامَةٍ
مَعَاهِدُ مِنْ غَزْلَانٍ أَنْسٍ تَحَالَفَتْ
بِهَا تَسْكُنُ النَّفْسُ النَّفُورُ ، وَيَغْتَدِي
يَحِنُّ إِلَيْهَا كُلُّ قَلْبٍ كَأَنَّمَا
فَكُلُّ لَيْالِي عَيْشِهَا زَمَنُ الصَّبَا
وَمَا زِلْتُ طَوَّعَ الْحَادِثَاتِ تَقُودُنِي

ويصف سكناه فيقول :

بِدَارِ بِهَا يَسْلَى الْمَشُوقُ اشْتِيَاقَهُ
بِهَا مَسْرَحُ اللَّعِينِ فِيهَا يَرُوقُهَا
يَرَى كُلُّ قَلْبٍ بَيْنَهَا مَا يَسُرُّهُ
صَفَا عَيْشُنَا فِيهَا ، وَكَادَتْ لِطِيبِهَا
وَيَأْمَنُ رَيْبَ الْحَادِثَاتِ مَرُوعُهَا
وَمُسْتَرَوِّحُ النَّفْسِ مَسَا يَرُوعُهَا
إِذَا زَهَرَتْ أَشْجَارُهَا وَزُرُوعُهَا
تَمَازِجُهَا الْأَرْوَاحُ لَوْ نَسْتَطِيعُهَا^(٤)

(١) الهجوع : النوم .

(٢) همعت العين هموعاً : أسالت . دمعها . والمستهام : ذاهب الفؤاد من الحب .

(٣) النزيع : الغريب .

(٤) يتيمة الدهر : ٤ : ١٢ .

صاحب في بغداد

« يشواق الشاعر إليه ، ويتعذب قلبه لبعده » :

بجَانِبِ الْكَرْخِ^(١) مِنْ بَغْدَادَ لِي سَكَنٌ لَوْلَا التَّجَمُّلُ مَا أَنْفَكَ أَنْدَبُهُ
وَصَاحِبٍ مَا صَحِبْتُ الصَّبْرَ مَذْبَعَتٌ دِيَارُهُ ، وَأَرَانِي لَسْتُ أَصْحَبُهُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِعَيْنِي مَا يُورِّقُهَا مِنْ ذِكْرِهِ ، وَلِقَلْبِي مَا يُعَذِّبُهُ^(٢)

٣ - جمال الطبيعة

« ليس فيما بين يدينا من شعره ما قصد به إلى وصف الطبيعة وحده ، ولكنه يرد في قصائد المدح »

روضة مزدهرة

« أزهار هذه الروضة فرحة باسمه ، كأنما يغازل بعضها بعضاً » :

إِذَا اسْتَشْرَفْتَ عَيْنَاكَ جَانِبَ تَلْعَةٍ جَلَّتْ لَكَ أُخْرَى مِنْ رُبَاهَا جَوَانِبَا^(٣)
يُضَاحِكُنَا نُورُهَا ، فَكَأَنَّمَا يُغَازِلُ بَيْنَ الرُّوضِ مِنْهَا حَبَائِبَا
تَبَسَّمَ فِيهَا الْأَقْحُوَانُ ، فَخَلَّتْهُ تَلَقَّاءُكَ مُرْتَاحًا إِلَيْكَ مُدَاعِبَا
وَحُلَّ نِقَابُ الْوَرْدِ ، فَاهْتَزَّ يَدْعَى بِوَادِيهِ مِنْ وَرْدِ الْخُدُودِ مُنَاسِبَا^(٤)

ربيع مسكر

« اكتست الأرض في الربيع بوشى مذهب ، وعاد للشجر طلاقته ، وخلعت الرياض حدادها ، وتميلت أشجارها مسكرى » :

أَلَمْ تَرَ أَنْوَاءَ الرَّبِيعِ كَأَنَّمَا نَشَرْنَ عَلَى الْآفَاقِ وَشْيَا مُذَهَّبَا^(٥)

(١) الكرخ : محلة ببغداد .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢٩ .

(٣) استشرف الشيء : رفع بصره ؛ لينظر إليه . والتلعة : ما علا من الأرض .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ١٤ .

(٥) الأنواء : جمع نوء ، وهو هنا : المطر .

فَمِنْ شَجَرٍ أَظْهَرَ فِيهِ طَبَاقَةً وَكَانَ عَبُوسًا قَبْلَهُنَّ مُقَطَّبًا
وَمِنْ رَوْضَةٍ قَضَى الشَّتَاءَ حَدَادَهَا فَوَشَّخَنَ عَطْفِيهَا مَلَاءَ مُطَيَّبًا (١)
سَقَاهَا سُلَافُ الْغَيْثِ رِيًّا ، فَأَصْبَحَتْ تَمَائِلُ سُكْرًا كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا (٢)

خريف ناضر

« يرى الشاعر الخريف أجمل الفصول ، رقيق الهواء ، صافي الطبيعة » :

رَحَلَ الْمَصِيفُ ، فَلَا تَزَلُ أَبَدًا تَوَدُّعُ رَكْبُهُ
وَبَدَا الْخَرِيفُ فَحَى خَا لَصَّةَ الزَّمَانِ ، وَلَبُّهُ
رَقَّ الْهَوَاءُ ، فَمَا تَرَى نَفْسًا يُعَالِجُ كَرْبُهُ
فَلَوْ اسْتَحَالَ مُدَامَةً مَا كُنْتُ أَحْظَرُ شُرْبُهُ (٣)

٤ - شخصيات

« مدح الشاعر بعض الرؤساء ، فكان منهم قابوس بن وشمكير ، ومنهم :

الصاحب بن عباد

« أديب يبتكر المعاني ، وتألف حولها الألفاظ » :

وَلَا ذَنْبَ لِلْأَفْكَارِ أَنْتَ تَرَكْتَهَا إِذَا احْتَشَدَتْ لَمْ تَنْتَفِعْ بِاحْتِشَادِهَا
سَبَقْتَ لِأَفْرَادِ الْمَعَانِي ، وَأَلْفَتَ خَوَاطِرُكَ الْأَلْفَازَ . بَعْدَ شَرَادِهَا

(١) العطف : الجانب .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٤ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٦ .

فَإِنْ نَحْنُ حَاوَلْنَا اخْتِرَاعَ بَدِيعَةٍ حَصَلْنَا عَلَى مَسْرُوقِهَا وَمُعَادِهَا (١)

« أهل للمجد ، يقسم على الناس أرزاقهم » :

يَأْيُهَا الْقَرَمُ الَّذِي بَعْدُوهُ نَالَ الْعَلَاءُ مِنَ الزَّمَانِ السُّوْلَا
قَسَمْتَ يَدَاكَ عَلَى الْوَرَى أَرْزَاقَهَا فَكَنُوكَ قَاسِمَ رِزْقِهَا الْمَسْئُولَا (٢)

« كريم شجاع ، لا يتلجلج ، ولكنه صارم كالسيف » :

أَغْرُ ، أَرْوَعُ ، تُلْهِينَا وَقَائِعُهُ فِي الْمَالِ وَالْقَرْنِ عَنْ صِفَيْنِ وَالْجَمَلِ (٣)
مُسْتَرْضِعٌ يَثْدِي الْمَجْدَ مُفْتَرِشٌ حَجَرَ الْمَكَارِمِ ، مَفْطُومٌ عَنِ الْبُخْلِ
أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ لَفْظًا غَيْرَ لَجَلَجَةٍ تَغْشَاهُ إِنْ مَالَ مُضْطَرًّا إِلَى الْعَلَالِ (٤)

« لا سبيل ألى حصر أياديه » :

وَسَائِلَ لِيَ عَنْ نَعْمَاكَ قُلْتُ لَهُ : تَفْصِيلُهَا مُسْتَحِيلٌ فَارْضَ بِالْجُمْلِ (٥)

« متوقد الذهن ذكاء ، حتى إن الحمى التي أصابته ليست إلا من توقد هذا الذهن » فإذا مرض قال له :

لَأَعْدَى تَشَكُّكَ الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا وَمَا أَحْسَبُ الْحُمَى ، وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا مِنْ تَلْهُبِ ذَهْنِهِ وَمَا خِلْتُ أَنَّ الشَّكْوَ يُعْدِي عَلَى الْبُعْدِ
لَتَجْسُرَ أَنْ تَدْنُو إِلَى مَنَبَعِ الْمَجْدِ تَوَقَّدَ حَتَّى فَاضٍ مِنْ شِدَّةِ الْوَقْدِ (٦)

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٥ .

(٣) معركة صفين : معركة بين علي ومعاوية . وكانت معركة الجمل بين علي وخصومه ، وكانت

السيدة عائشة معهم تركب جملا .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ١٦ .

(٥) المرجع السابق ص ١٧ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

(ج) المؤرخ

« أثبت الثعالبي في كتابه فصلين من خطبة كتاب " تهذيب التاريخ " للقاضي الجرجاني فنقلهما عنه في هذا الفصل »

فضل التاريخ

« التاريخ يميز الناسخ والمنسوخ ، ويروى أعمال الرسول »
 « ولولا التاريخ لما تميز ناسخ من منسوخ ، ومتقدم من متأخر ، وما استقرّ من الشرائع وثبت مما أزيل ورفع ، ولا عُرف ما كان أسبابها ، وكيف مسّت الحاجة إليها ، وحصلت وجوه المصلحة فيها ، ولا عُرفت مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرّوبه وسراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولاين ، وسارّ وخافت ، وفي أي وقت جاهر وكاشف ، ونبذ أعداءه وحارب ، وكيف دبّر أمر الله الذي ابتعثه له ، وقام بأعباء الحقّ الذي طوّقه ثقله ، وأيّ ذلك قدّم ، وأيّها أخر ، وبأيها بدأ ، وبأيها ثنّى وثلّث ؛ وإنّ الولد البرّ ليتفقد من آثار والده ، والصّاحب الشفيق ليُعنى بمثله من شأن صاحبه ، حتى بعد أن أغفله مستهيناً به ، مستوجباً لعتبه ، فكيف لمنّ هو رحمة الله المهداة إلينا ، ونعمته المفاضة علينا ، ومنّ به أقام الله دنيانا وديننا ، وجعله السفير بينه وبيننا ، وأيّ أمر أشنع وحالة أقبح من أن يحلّ الرّجل محلّ المشار إليه المأخوذ عنه ، ثمّ يسأل عن الغزوتين المشهورتين من مشهور غزواته ، والأثرين من مستفيض آثاره ، فلا يعرف الأوّل من الثّاني ، ولا يفرّق بين البادى والتّالى»^(١).

الهدف من تأليف الكتاب

« للمؤلف غرضان من تأليف كتابه : أحدهما ديني يقيد به أخبار الرسول ، والثاني دنيوي هو أن يقوم الكتاب تذكاراً له عند الصّاحب بن عباد »

« وهذا كتاب قصدت به غرضي دين ودنيا ؛ أما الدّين فأن أقيد به من

آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره ، ومعارف أحواله وأيامه ، وذكر ما طمس الله من معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق ، وما خفض بعلو كلمته ، وعلى أيدي أنصاره وشيعته من رايات كانت عالية على الأبد ، مكنوفة بحصانة العدد ، وكثافة العدد ، ما يعلم به العاقل المتوسم أن تلك الفئة القليلة ، والعدّة اليسيرة ، على قلة الأهبة ، وقصور العدّة ، وخمول الذكر ، وضعف الأيدي ، وعلو أيدي الأعداء ، وشدة شوكة الأقران ، لا تستمر لها ، ولا تتفق معها مغالبة الأمم جمعا ، ومقاومة الشعوب طرّا ، وقهر الجنود الجمّة ، والجموع الضخمة ، وإزالة الممالك الممهدة ، والولايات الموطدة ، في الدهر الطويل والزمن المديد ، مع وفور العدّة ، وانبساط القدرة ، واستقرار الهبة ، إلاّ بالنصرة الإلهية ، والمعونة السماوية ، وإلاّ تأييد لا يخص الله به إلاّ الأنبياء ، ولا ينتخب له إلاّ الأولياء ، وإن اختص فيه معاناة أنصاره وأتباعه ، والقائمين بإظهار دينه في حياته ، وعمارة سبيله بعد وفاته ، من مصابرة اللاؤاء^(١) ، ومعالجة البأساء ، وبذل النفوس والأموال ، وإخطار المهج والأرواح ، ما يزيد القلوب للإسلام تفخيماً ، وبحقه تعريفاً ، ولما عساها تستكبر من أفعالها تصغيراً ، وفي الازدياد منه ترغيباً ، وما أجره في خلال ذلك من تذكير بآلاء الله ، وتنبيه على نعم الله ، بما أقتص من أنباء الأولين ، وأبث من أخبار الآخرين ، وأبين من الآيات التي أمر الله بالمسير في الأرض لأجلها ، وبعث على الاعتبار بها وبأهلها ؛ فقال : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ؛ فيحرص العاقل على استبقاء نعمة الله عنده بالشكر الذي ضيعه من سلبه الله تلك النعم ، ويتحرّر من غوائل الكفر الذي أحلّ بهم تلك النقم^(٢) .

وأما غرض الدنيا فأن أقيم بفناء الصّاحب الجليل — أدام الله بهاء العالم

(١) اللاؤاء : الشدة والمحنة .

(٢) النقم : جمع نقمة ، وهي : المكافأة بالعقوبة .

بدوام أيامه — مَنْ يَخْلُقْنِي فِي تَجْدِيدِ ذِكْرِي بِحَضْرَتِهِ ، وَتَكَرُّرِ اسْمِي فِي مَجْلِسِهِ ،
وَمَنْ يَنْوِبُ عَنِّي فِي مَزَاحِمَةِ خِدْمَتِهِ ، عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِحَقِّ نِعْمَتِهِ ؛ وَعِلْمَتِ
أَنِّي لَا أَسْتَخْلِفُ مَنْ هُوَ أَمْسٌ بِهِ رَحِمًا ، وَأَقْرَبُ مِنْهُ نَسَبًا ، وَهُوَ أَرْفَعُ عِنْدَهُ
مَوْضِعًا ، وَالْطَفُّ مِنْهُ مَوْقِعًا ، وَأَخْصَى بِهِ مَدْخَلًا وَمُخْرَجًا ، وَأَشْرَفَ بِحَضْرَتِهِ
مَقَامًا وَمَوْقِفًا ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي يَزْكُو عِنْدَهُ غَرْسًا ، فَيُضْعَفُ رِيعًا ، وَيَحْلُو
طَعْمًا ، وَيَطِيبُ عَرْفًا^(١) ، وَيَحْسُنُ اسْمًا ؛ فَاخْتَرْتُ لِذَلِكَ هَذَا الْكِتَابَ ثِقَةً
بِوَجَاهَتِهِ ، وَعِلْمًا بِقَرَبِ مَنْزِلَتِهِ ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ وَجِيهًا مَكِينًا ، وَمَقْبُولًا
قَرِينًا ، وَإِنَّمَا هُوَ نَتَاجُ تَهْذِيبِهِ ، وَثَمَرَةُ تَقْوِيمِهِ ، . . . وَرِيعُ تَحْرِيكِهِ ، فَلَوْلَا
عَنَايَتُهُ لَمَا صَدَقَتِ النِّيَّةُ ، وَلَوْلَا إِرْشَادُهُ لَمَا نَفَذْتُ الْفِطْنَةَ ، وَلَوْلَا مَعُونَتُهُ لَمَا اسْتَجْعَمْتُ
الْآلَةَ ؛ وَمَا يَبْعُدُ بِهِ عَنِ إِيْثَارِ الْعُلُومِ وَتَعْظِيمِهَا ، وَعَنِ تَقْدِيمِهَا وَتَقْرِيبِهَا ؛ وَهُوَ
الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ لَهَا مَثَالًا ، وَأَقَامَهُ عَلَيْهَا مَنَارًا ، وَجَعَلَهُ لَهَا سِنْدًا ، وَلِإِحْيَائِهَا
سَبَبًا^(٢) .

(١) العرف : الرائحة .

(٢) يتيمة الذهر ٤ : ٨ .

مراجع البحث

- ١ — الإبانة عن سرقات المتنبي . (طبع دار المعارف) .
لأبي سعيد محمد بن أحمد العميد المتوفى سنة ٤٣٣ هـ .
- ٢ — أبو الطيب المتنبي . (مطبعة الشباب بمصر سنة ١٩٢١ م) .
لمحمد كمال حلمي بك
- ٣ — أدب الدنيا والدين . (مطبعة شركة التمدن الصناعية) .
لأبي الحسن الماوردي .
- ٤ — أسرار البلاغة . (مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٣٩ م) .
لعبد القاهر الجرجاني .
- ٥ — أسس النقد الأدبي عند العرب . (مطبعة الرسالة) .
للدكتور أحمد أحمد بدوي .
- ٦ — الأعلام . (المطبعة العربية بمصر سنة ١٩٢٧ م) .
لخير الدين الزركلي .
- ٧ — الأغاني . (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
لأبي الفرج الأصفهاني .
- ٨ — البديع . (مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٤٥ م) .
لعبد الله بن المعتز .
- ٩ — تاريخ الأدب العربي — الجزء الثالث — (مطبعة لجنة البيان العربي) .
للأستاذ السباعي بيومي .
- ١٠ — تاريخ الأدب العربي — الجزء الثاني — (طبع دار المعارف بمصر) .
لكارل بروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .
- ١١ — تاريخ علوم البلاغة ، والتعريف برجالها . (مطبعة مصطفى البابي الحلبي
سنة ١٩٥٠ م) .

لأحمد مصطفى المراغى .

١٢ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

سنة ١٩٣٧ م) .

لطفه أحمد إبراهيم .

١٣ — دلائل الإعجاز . (مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ)

لعبد القاهر الجرجاني .

١٤ — ديوان المتنبي . (مطبعة هندية بالموسكى بمصر سنة ١٩٢٣ م) .

١٥ — ديوان المتنبي فى العالم العربى وعند المستشرقين . (مطبعة نهضة مصر) .

للدكتور ر . بلاشير ، وترجمة الدكتور أحمد أحمد بدوى .

١٦ — الرسالة الحاتمية . (طبع دار المعارف بمصر ، مع كتاب الإبانة عن

سرقاات المتنبي) .

لأبى على محمد بن الحسن المعروف بالحاتمى ، المتوفى سنة ٣٨٨ هـ .

١٧ — روضات الجنات . (طبع حجر بدار الكتب . رقم ٢٦٠٩ تاريخ) .

لمحمد باقر بن الحاجى أمير زين العابدين الموسوى . من علماء القرن

التاسع الهجرى .

١٨ — زهر الآداب ، وثمر الألباب . (المطبعة الرحمانية بمصر) .

لأبى إسحق الحصرى القيروانى ، بتحقيق الدكتور زكى مبارك .

١٩ — شذرات الذهب ، فى أخبار من ذهب . (طبع القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ) .

لعبد الحى بن العماد الحنبلى .

٢٠ — شرح المعلقاات السبع . (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ) .

للزوزنى .

٢١ — الشعر والشعراء . (الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ) .

لأبى محمد عبد الله بن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

- ٢٢ - الصاحب بن عباد . (مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٣٢ م) .
 لتحليل مردم بك .
- ٢٣ - الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها . (مطبعة المؤيد سنة ١٩١٠ م) .
 لأحمد بن فارس .
- ٢٤ - الصّناعتين . (مطبعة محمد علي صبيح - الطبعة الثانية) .
 لأبي هلال العسكري .
- ٢٥ - الصّورة الأدبية . (دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٨ م) .
 للدكتور مصطفى ناصف .
- ٢٦ - طبقات الشافعية . (المطبعة الحسينية المصرية - الطبعة الأولى سنة ١٣٣٤ هـ) .
 لتاج الدين السبكي .
- ٢٧ - طبقات فحول الشعراء . (مطبعة دار المعارف) .
 لمحمد بن سلام الجهمي المتوفى سنة ٢٣١ هـ . بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر .
- ٢٨ - طبقات الفقهاء . (مخطوط بدار الكتب رقم ح ١١٨٣) .
 لأبي إسحق إبراهيم بن عليّ الشيرازي .
- ٢٩ - طبقات المفسرين . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ) .
 لمحمد بن عليّ الداودي المالكي .
- ٣٠ - ظهر الإسلام - الجزء الأول - (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥) .
 لأحمد أمين .
- ٣١ - عبد القاهر الجرجاني . (دار مصر للطباعة سنة ١٩٦٢ م) .
 للدكتور أحمد أحمد بدوي .

- ٣٢ — عبد القاهر والبلاغة العربية . (المطبعة المنيرية سنة ١٩٥٢ م) .
للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى .
- ٣٣ — العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده . (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧) .
للحسن بن رشيق القيروانى .
- ٣٤ — ابن العميد . (مطبعة الاعتدال بدمشق) .
لخليل مردم بك . .
- ٣٥ — فوات الوفيات . (مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .
لمحمد شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
- ٣٦ — الكامل فى التاريخ . (المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١ هـ) .
لعلى بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .
- ٣٧ — كشف الظنون . (طبع الآستانة سنة ١٩٤١ م) .
لحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ .
- ٣٨ — الكشف عن مساوئ شعر المتنبى (طبع دار المعارف بمصر ، مع كتاب
الإبانة عن سرقات المتنبى) .
للساحب بن عباد .
- ٣٩ — المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر . (المطبعة البهية) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٢٧ هـ .
- ٤٠ — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية — الدولة العباسية . (مطبعة دار إحياء
الكتب العربية بمصر) .
لمحمد الحضرى .
- ٤١ — معجم الأدباء . (مطبعة دار المأمون) .
لياقوت الرومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
- ٤٢ — معجم البلدان . (مطبعة السعادة بمصر) .

- ٤٣ - مقدمة ابن خلدون . (المطبعة البهية) .
 لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .
- ٤٤ - من النقد والأدب - المجموعة الرابعة - (مطبعة الرسالة بالقاهرة) .
 للدكتور أحمد أحمد بدوى .
- ٤٥ - الموازنة بين أبى تمام والبحترى . (مطبعة محمد على صبيح بمصر) .
 للحسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .
- ٤٦ - الموشح فى مأخذ العلماء على الشعراء . (المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ) .
 للمرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ .
- ٤٧ - النثر الفنى فى القرن الرابع . (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ م) .
 للدكتور زكى مبارك .
- ٤٨ - النقد المنهجى عند العرب . (مطبعة الفكرة بالقاهرة) .
 للدكتور محمد مندور .
- ٤٩ - الوساطة بين المتنبي وخصومه . (مطبعة عيسى البابى الحلبي) .
 للقاضى على بن عبد العزيز الجرجاني . بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم
 وعلى محمد البجاوى .
- ٥٠ - وفيات الأعيان . (المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ هـ) .
 لأحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ .
- ٥١ - يتيمة الدهر . (مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ م) .
 لأبى منصور الثعالبي ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

الفهرس

الفصل الأول

عصر القاضى الجرجانى

الصفحة

٥	١ - الحياة السياسية
١٢	٢ - الحياة الاجتماعية
١٥	٣ - الحياة العقلية

الفصل الثانى

القاضى الجرجانى فى عصره

٢٣	١ - حياته
٣١	٢ - صورته الجسمانية والنفسية
٣٧	٣ - علاقته بعصره

الفصل الثالث

جوانب القاضى الجرجانى

٤٢	١ - آثاره
	٢ - آراؤه فى النقد الأدبى
٥١	(أ) إنتاج الشعر
٥٢	(ب) اختلاف الشعر
٥٣	(ح) المثل الأعلى للشعر

٦٠	(د) السرقة في الشعر
٦٣	(هـ) مذهبه التأثري والذوق
٦٧	١ - ذوق القاضي الجرجاني
٧٠	٢ - أسلوبه
٧٢	٣ - منهجه في كتاب الوساطة
٧٤	٤ - شعره
٨٠	٥ - تأثيره وتأثيره
٩٠	٦ - منزلته

الفصل الرابع

منتخبات من آثار القاضي الجرجاني

٩٤	(أ) الناقد :
٩٤	العدالة في النقد
٩٥	الشعر بين القدماء والمحدثين
٩٦	تطور الشعر وأثر التكلف
٩٧	التحامل في نقد المحدثين
٩٨	الذوق والنقد
١٠١	الاستعارة
١٠١	(ب) الشاعر :
	١ - حب الجمال :
١٠١	ساق جميل
١٠٢	حبيب فاتن
١٠٢	جميل وراء الستار
١٠٣	أحب لأجله اسمه وسميه وأعدائي
١٠٣	جفن عليل

الع

١٠٣	الم الحبيب فصد
١٠٤	شكوى من الجمال
١٠٤	أجمل من الهلال
١٠٤	قبلة مختلصة
١٠٥	عينان منهما السعادة والشقاء

٢ - شوق إلى بغداد :

١٠٥	يفغر ذنوب الأيام
١٠٦	حنين إلى معاهد الصحب
١٠٧	صاحب في بغداد

٣ - جمال الطبيعة :

١٠٧	روضة مزدهرة
١٠٧	ربيع مسكر
١٠٨	خريف ناضر

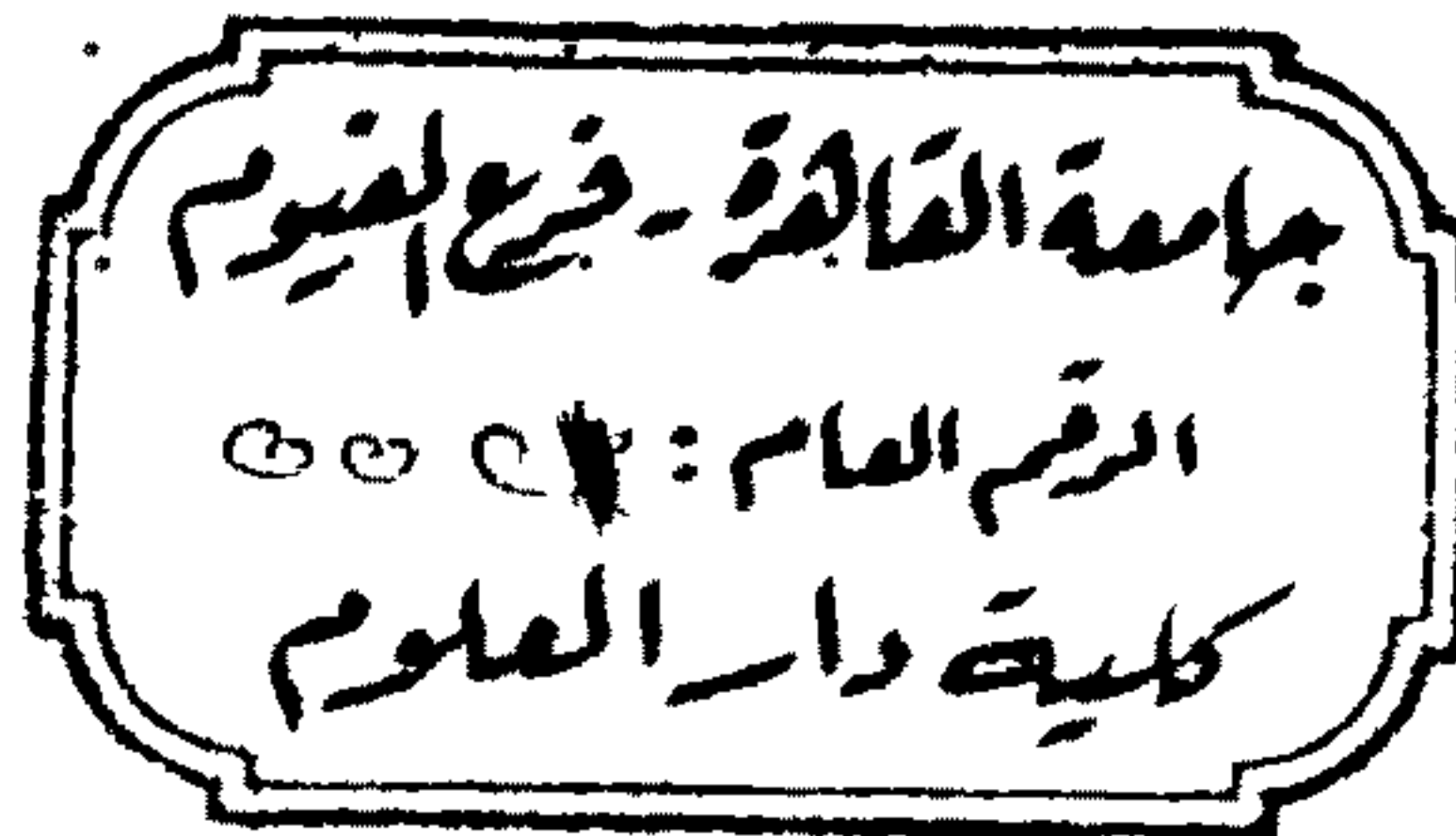
٤ - شخصيات :

١٠٨	الصاحب بن عباد
-----	----------------

(ح) المؤرخ :

١١٠	فضل التاريخ
١١٠	الهدف من تأليف الكتاب

١١٣	مراجع البحث
١١٨	الفهرس



١٩٨٠/٣٩٦٦	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٤-٧١-٠	الترقيم الدولي

١/٨٠/١٤٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)